

هيمنة العرب وتأثيرهم الحضاري على شعوب

آسيا الوسطى

أ.د. أحمد محمد الجوارنة

جامعة اليرموك

إربد - الأردن

بحث مدعوم من عمادة البحث العلمي والدراسات

العليا في جامعة اليرموك - إربد - الأردن

نشر في مجلة أبحاث اليرموك

تشرين ثاني 1999م

ملخص

إن الأثر الحضاري الذي خلفه الفاتحون العرب المسلمون على شعوب آسيا الوسطى ظل قائماً ومؤثراً رغم مضي قرون طويلة ومرور المنطقة بمتغيرات سياسية واجتماعية كثيرة، وهو دليل راسخ على قوة العرب التنظيمية والتخطيطية، حيث هدفت هذه الدراسة إلى استعراض جوانب المؤثرات والوسائل التي استخدمها العرب، ثم سلّطت هذه الدراسة الأضواء على الجوانب التالية:

أولاً: دراسة نقدية لبعض آراء المستشرقين المهتمين بدراسة تاريخ العرب المسلمين في آسيا الوسطى.

ثانياً: دراسة وتحليل الوسائل السياسية والعسكرية.

ثالثاً: دراسة وتحليل الوسائل الدينية والاجتماعية والثقافية.

وأخيراً، فإن هذه الورقة محاولة لقراءة آليات العمل وأساليب التأثير التي سعى إلى تنفيذها العرب الفاتحون لآسيا الوسطى، وصولاً لتحقيق مؤثرات عقائدية وثقافية دائمة ومستمرة في حياة شعوب آسيا الوسطى.

آسيا الوسطى أو ما تعرف عند العرب المسلمين ببلاد ما وراء
النهر وهو المصطلح الذي كان نتيجة من نتائج الفتح العربي لآسيا
الوسطى، من المناطق التي استهوت الفاتحين العرب الأوائل في
صدر الإسلام، وتحديدًا في عهد بني أمية ، كنتيجة طبيعية
لامتداد الحملات العسكرية على مناطق الشرق، وقد أبدى الكثير
من المؤرخين العرب اهتمامهم في تدوين وتوثيق تلك الحملات،
ومنها تحديدًا حملة قتيبة بن مسلم الباهلي على بلاد الترك،
فنجد من أولئك المؤرخين البلاذري والطبري وابن اعثم الكوفي
والنرخسي واليعقوبي وياقوت الحموي وغيرهم . وجميعهم
اجتهدوا بالكشف عن همة وطموح العرب وإصرارهم المتواصل
وجديتهم اللامتناهية وصولاً إلى طبع الشعوب التي نجحوا في فتح
بلادها بطابع إسلامي وعربي جديد، وتجلّى ذلك أكثر حينما
وثقوا عشرات الرسائل التي تبادلها قائد فتح آسيا الوسطى مع
سلطة الأمويين المركزية في دمشق والعراق، والتي تفصح عن
دلالات هامة تشير إلى رغبة العرب في إعداد وتنظيم حملاتهم
لتحقيق هدفهم من خلال مفاهيم ومعتقدات الشعوب والأمم
المغلوبة، وبرغم ما زخرت به المؤلفات التاريخية العربية والتي
تحدثت عن فتوحات العرب المسلمين في مختلف الأقاليم والمناطق،
ورغم الشمولية التي امتاز بها أولئك المؤرخون، إلا أنها أشارت إلى
الآليات التي عمل العرب من خلالها على نشر الإسلام في المناطق

المفتوحة، حتى ليخيل للقارئ أن سكان هذه الأقاليم اعتنقوا الإسلام بمجرد دخول العرب الفاتحين لأقاليمهم وهذا ما يخالف الحقيقة التاريخية، كما أغفلت المصادر العربية تفسير ظاهرة تأثير العرب على غيرهم من الشعوب، إذ أشارت إلى العديد من الآليات والوسائل والطرق التي استخدمها العرب في آسيا الوسطى وغيرها ولكنهم لم يفسروا لنا طبيعة هذه الوسائل ومدى تأثيرها ونجاحها في الوسط الجديد.

أولاً: دراسة في آراء بعض المستشرقين:

ثمة اهتمامات على قدر كبير من الأهمية، جاءت في مؤلفات العديد من المستشرقين المهتمين بتاريخ آسيا الوسطى، ووصول العرب المسلمين إليه فاتحين منتصرين، وذلك للأهمية الكبرى التي تتمتع بها منطقة آسيا الوسطى على صعد متعددة، كالسكان والسياسة والاقتصاد، كما أنبثق ذلك الاهتمام نتيجة للأثر الحضاري العميق الذي أحدثته فتوحات العرب على شعوب الترك في آسيا الوسطى، وهي الآثار التي عمرت ورسخت جذورها بقوة وفاعلية، في الوقت الذي أتكأ العرب على خطط ونظم عسكرية قوية، ضمنت استمرارية التأثير رغم المتغيرات السياسية والظروف الصعبة التي واجهتها شعوب المنطقة والدولة العربية أيضاً، علماً بأن تأثير العرب لم يأت بمحض المصادفة ولا نتيجة لحياة الضعف ومظاهر البداوة والبداية التي كانت السمة الغالبة على حياة شعوب آسيا الوسطى، بل لا يمكن للتأثير العقائدي والثقافي أن يحافظ على هيئة وديمومته ونشاطه بالشكل الذي نجده حالياً

بين قبائل الترك في بلاد ما وراء النهر، إلا إذا كان وراء ذلك قادة منظّمون ومخطّطون ومبدعون أخذوا يسرون بواقعية ملموسة، ويضعون آليات ووسائل منظمة غاية في التنظيم، ضمنت سيادة العرب السياسية أولاً، ومن ثم، وبشكل تدريجي، راحوا يغيرون طابع الحياة التركية العام شيئاً فشيئاً تجاه المعتقد الجديد وما يحمله من ثقافة عكس الثقافة التي تؤمن بها شعوب آسيا الوسطى تماماً.

وقد أثّرنا أن نعالج بعض تصورات المستشرقين حول الفتح العربي لآسيا الوسطى وما انطوى عليه من آثار ومعالم، لنجد أن غالبيتهم كانوا يتحدثون بعموميات الفتح والمحاولات العربية إلى نشر الإسلام، دون الاهتمام بالكشف عن آليات العمل والوسائل المختلفة التي راح يطبقها العرب تدريجياً على شعوب المناطق المفتوحة في آسيا الوسطى، ونأخذ من أولئك أرنولد توماس، بارتولد، فامبري، بوسورت، وأحمدوف وزاهدوف.

من المستشرقين الذي منحوا انتشار الإسلام في العالم، وفي آسيا الوسطى على وجه التحديد عنايتهم الكبيرة، هو المستشرق الإنجليزي أرنولد توماس في كتابه "الدعوة إلى الإسلام" "The Preaching of Islam"، وهو من المؤرخين القلائل الذين تنبهوا إلى دراسة وتحليل ظاهرة انتشار الإسلام في شتى البلاد، وقد وقف على العديد من جوانب التأثير العربي على شعوب الترك في آسيا الوسطى، ويعتقد، واعتقاده على درجة عالية من الأهمية والصحة، إن الدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام لم تلق الاهتمام الكافي من قبل الفاتحين في توثيق وسائل انتشارها، ولا

وجدت نفس الأهتمام عند المؤرخين العرب المعاصرين ولا حتى التي جاءت بعد الفتح العربي لآسيا الوسطى، (1) وإذا رجعنا الى المصادر العربية الأولى والمتأخرة نجدها تفتقد لمثل هذه الدراسات الهامة التي تعالج أخطر وأهم الموضوعات الإنسانية على الإطلاق، فهي من نتاج الفتح، ومن نتاج الإعداد العسكري والنفسي السليم، وكذلك من نتاج الهيكل السياسي (الخليفة) عند العرب.

ثم يجاول أرنولد إقناع القارئ بأن مهمة القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي، لا سيما فتحه لمدينة سمرقند، لا تعدو عن كونها ممارسة همجية صرفة قادها ذلك القائد العربي ضد معتقدات السكان الأصليين، ويتخذ من رواية البلاذري سنداً له، حيث ورد عند البلاذري وجود كفار وثنيين في مدينة سمرقند، حيث أمر قتيبة بتحطيم الأصنام وتدمير المعابد الوثنية، مما دفع بسكان المدينة- خوفاً وفزعاً- إلى اعتناق الإسلام (2) ونلاحظ أن أرنولد اعتمد بشكل مطلق على مؤلفات العرب والمسلمين أثناء حديثه عن انتشار الإسلام في آسيا الوسطى، وانتقى منها تاريخ بخارى للنرشخي، وفتوح البلدان، للبلاذري، وتاريخ الطبري، ولكي ننصف أرنولد، فإنه اقتبس اقتباساً واحداً للنرشخي، وأربعة اقتباسات للبلاذري، واقتباس واحد للطبري، وهو ما يشير الى أسلوب الانتقائية في أخذ النصوص المروية، والتي حاول المستشرق توظيفها لغايات الدراسة، وتلك الروايات، في أغلبها، حملت أشكالاً متنوعة من وسائل القتال وطرق تعامل العرب مع الشعوب التركية، متناسياً تنوع الأساليب وتعدد الآليات والوسائل السلمية

التي استخدمها العرب وصولاً إلى نشر الإسلام بين شعوب آسيا الوسطى.

فقد أشار إلى رواية النرشخي التي يتحدث خلالها عن مدينتي بخارى وسمرقند، والمعارضة الشديدة التي أعلنها سكانها تجاه الدين الإسلامي الجديد الذي فرضه العرب عليهم، بحيث حرمتهم الدولة العربية من الانخراط في المؤسسة العسكرية (الجيش) والخدمة فيها باستثناء من أعتنق الإسلام منهم، وقد حاول المسلمون بطرق مختلفة اجتذاب سكان سمرقند وبخارى لقبول الإسلام واعتناقه، فكان يفرض عليهم بالترهيب والترغيب الحضور إلى المسجد الجامع لإقامة صلاة الجمعة، كما وسمح بترجمة نصوص القرآن الكريم إلى الفارسية لتعليم الناس، بالإضافة إلى التعليم باللغة العربية، وقد أقتبس ذلك من البلاذري (3)، ثم يقول وفقاً لرواية البلاذري: بأن تقدم الإسلام في بلاد ما وراء النهر ظل ذا تأثير بطيء، وأن بعض سكان المناطق قبلوا دعوة عمر بن عبد العزيز لاعتناق الإسلام، وأن الكثيرين دخلوا في الإسلام عن طريق الدعوة التي قادها أبو سعدة حيث أعلن عن دعوته في مدينة سمرقند في عهد هشام بن عبد الملك (4).

أما المستشرق الروسي بارتولد، الذي تعمق بدراسات تاريخ العرب والمسلمين في بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى) من خلال مؤلفات عديدة أهمها، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، وتاريخ الترك في آسيا والوسطى، نراه لا يهتم بتسليط الضوء على مؤثرات العرب المسلمين على شعوب آسيا الوسطى، سواء من الناحية الدينية أو الثقافية، بل حاول تقديم جملة من

الأفكار السياسية ذات الصلة بالحوادث التاريخية، وذلك لإبرازها سياسياً وتاريخياً، مركزاً على فتوحات العرب الأولى للمنطقة، ونلاحظ أنه، عن عمد أو عن غير عمد، يتغاضى كلية عن ذكر آليات العمل التي نفذها العرب لتحقيق أهدافهم من الفتح، خاصة ضمان سيطرتهم المباشرة على مقدرات آسيا الوسطى وشعوبها وبالتالي تهئية المناخ لنشر العقيدة الإسلامية وثقافتها، ونلمس من جهة ثانية، أن لدى المؤرخ ثوابت وقناعات تنوه إلى دوافع الفتح العربي الذي يراه بارتولد ذا طابع مادي واقتصادي بحت، حيث يقول:

"ورغماً مما يصور بعض هذه الوقائع التاريخية من شكوك فإن روايات المؤرخين تقدم لنا فكرة واضحة بما فيه الكفاية تعاون على فهم روح ذلك العصر، ولا تترك مجالاً للارتياح في أن الهدف الأساسي للغزاة إنما كان الغنائم والمجد الشخصي، هذا بينما شغل الجانب الديني على وجه العموم دوراً ضئيلاً، سواء بالنسبة لهم أو بالنسبة لأهل البلاد الذين كانوا يذودون عن أوطانهم" (5).

وفي موقع آخر، يشير بارتولد إلى تعاون عسكري كبير بين بعض أمراء وملوك آسيا الوسطى مع قتيبة بن مسلم الباهلي، وأطلق على هذا التعاون بكلمات تقلل من قوته، حيث قال:

"وهو- أي قتيبة- بالتجائه إلى استعمال الحيلة والغدر حينما لم تجد الشجاعة، كان أول من ثبت دعائم السيطرة العربية على بلاد ما وراء النهر، وقد

استغل قتيبة إلى درجة كبيرة الشقاق والخلاف بين أهالي البلاد، ففي عام 86هـ/705م دعاه أمير الصغانيان بنفسه ليعاون ضد عدوه ملك أفرون وشومان، وفي عام 94هـ/712م زحف قتيبة على خوارزم لمعاونة خوارز مشاه ضد أخيه الأصغر، والدهاقنة الثائرين عليه، وفي ذلك العام نفسه عاون أهل خوارزم وبخارى قتيبة بحماس شديد في حملته على سمرقند، مما جعل غورك إخشيد السغد يعيره بقوله: "إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العجم فاخرج إليّ العرب" (6).

وعندما نتفحص كتاب تركستان نجد بارتولد في هامش كتابه يقتبس ذلك من تاريخ الطبري، والتي أطلق حكمه عليه مباشرة دون تقليب بقية المصادر الأخرى، الأمر الذي يجعلنا نميل إلى أن هؤلاء الأمراء إنما التجأوا إلى جيش قتيبة، إما بدافع سياسي وصولاً إلى تحقيق مكاسب شخصية على حساب الممالك والإمارات التركية الضعيفة، أو بداية تعايش سلمي هؤلاء مع ما جا به العرب من ثقافة وعقيدة جديتين، وبأقل تقدير، فإن الأتراك قبلوا بالعرب سلطة مهيمنة على مقدرات بلادهم على الرغم مما تحمله حملة العرب من مؤثرات سياسية واقتصادية وثقافية وعقائدية ربما تجد طريقها للتأثير على شعوب الترك في آسيا الوسطى بيسر وسهولة.

وفي مؤلفة الشهير "تاريخ الترك في آسيا الوسطى" يعاود بارتولد التأكيد على أن العرب قد أحرزوا أهم انتصاراتهم في آسيا الوسطى أثناء ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان بين 76هـ/98م

(705م-715م)،... ثم يذهب إلى أنه برغم أن الأتراك لم يستسلموا لأسلحة المسلمين، فإن تأثير المدينة الغربية عليهم قوي بعد دخول المسلمين في آسيا الوسطى،(7) والحقيقة أن بارتولد حاول مراراً التغاضي عن مسألة اهتمام الفاتحين العرب بنشر الإسلام في آسيا الوسطى.

انطلق فامبري في حديثه عن فتوحات العرب في آسيا الوسطى معتمداً بالكلية على المصادر العربية كالطبري والبلاذري وابن اعثم الكوفي، واثناء حديثه عن بخارى حاول البحث كذلك في عموم أقاليم آسيا الوسطى، وأشار إلى أن العرب المسلمين غزوا بخارى ثلاث مرات ونشروا الإسلام بها، ولكن أهلها كانوا يرتدون إلى عقيدتهم القديمة عقب رحيل الغزاة عنهم في كل مرة (8) ويقصد بالحملات الثلاث، حملة عام 46هـ/666م بقيادة قريش بن الحارث، وحملة عام 53هـ/673م بقيادة عبيد الله بن زياد، وحملة عام 56هـ/675م بقيادة سعيد بن عثمان.

إلا أنه في معرض حديثه عن بدء حملة قتيبة بن مسلم الباهلي يصرح بأن حملة العرب الجديدة بقيادة قائد أدى حذره وشجاعته وقوة جلدته إلى إطفاء آخر بصيص لحضارة إيران القديمة، وأن الحملة التي أعد لها الحجاج جيشاً قوياً بقيادة قتيبة سنة 86هـ/704م، من الحملات التي هدفت إلى نشر التعاليم الإسلامية في إقليم ما وراء النهر، ولذلك قرر قتيبة، لا أن يغير على الإقليم وينتهب ما فيه فقد كان عليه أولاً أن يسيطر سيطرة مطلقة على بلخ الجنوبية، هناك جمع جنده في مرو فأخذ يذكرهم بآيات الله وأحاديث نبيه، فلم يكذب يصل حدود بكتريا

القديمة حتى أقبل عليه أهل بلخ مرحبين وساروا في ركابه الى مدينتهم، وفيها قرأ قتيبة الخطبة باسم أمير المؤمنين "الوليد بن عبد الملك" (9).

وفامبري وإن هو اعتمد كثيرا على روايات الطبري، إلا أنه حاول أن يضع استنتاجاته على حملة قتيبة ودورها في نشر تعاليم الدين الجديد الذي جاء مع العرب، فيقول:

"إن تلك التعاليم- وذلك بعد فتح بخارى سنة 90هـ/708م- التي قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة ثم أقبل القوم من بعد ذلك عليها في غيرة شديدة... وقد اتخذ نضال قتيبة مع اتباع بوذا وزرادشت المتعصبين صورا متعددة واستغرق زمناً طويلاً ولم تكن التغيرات السياسية التي اضطلع بها العرب هناك مثار متاعب كثيرة لهم في الغالب، فقد تركوا حكم المدينة (بخارى) بأيدي الخدات (الأمير) حاكمها الأول على أن يشترك معه في الحكم عامل من قبل الخليفة يأتي في المنزلة من بعده، ولم يلبث عامل الخليفة هذا ان رقي الى مرتبة الإمارة فيما بعد وصار صاحب السلطان الفعلي وأهمل أمر الخدات التركي" (10).

وقد أدرك فامبري بعد مطالعته المتعمقة لتاريخ الفتح العربي لآسيا الوسطى قوة التخطيط وبراعة التنظيم لدى العرب الفاتحين، والتي من خلال ممارستهم لها وتطبيقها على واقع الحياة التركية، جعلهم يستحوذون على مقدرات البلاد وينتزعون القرار من حكامها، ولذلك أدرك سكان بخارى وسمرقند وخوارزم وغيرها أنهم لا طاقة لهم في مواجهة الطرق والأساليب التي استخدمها العرب لحملهم على اعتناق الإسلام، بل وحينما

أدرك العرب الفاتحين أن الكثيرين ممن دفع به خوف الفتح إلى اعتناق الإسلام يمارسون طقوسهم الدينية القديمة بحماس أكثر من ذي قبل في سكون الليل أو في تكتم بالغ، أمر العرب بأن يساكن كل واحد من أهل بخارى مثلاً - في داره أحد العرب، وبهذا أصبح الشريك الجديد عيناً على الأسرة التي يساكنها، يراقب سلوك هؤلاء الذين دخلوا الإسلام ويفقههم في أمور دينهم وينبئ ولي الأمر عن يرتد منهم عن الدين .

ونلاحظ أن المؤرخ فامبري رصد الكثير من الطرق والوسائل التي استخدمها العرب المسلمون في نشر دينهم وثقافتهم وسط شعوب آسيا الوسطى، ولا نشك بأن فامبري قد حصل عليها في المصادر العربية الأولى -ورغم ذلك - فحسبه أنه نوه إلى ثلاث قضايا مما عمل على تنفيذها العرب المسلمون:

1. رصدت جوائز مالية لمن يظهر تمسكه بدينه من الأتراك، وكل من يصلي منهم بمسجد قتيبة الذي بني عام 94هـ/742م في مدينة بخارى، يصيبه درهمان ، وكذلك في غيره من دور الصلاة .

2. كان القرآن يقرأ بالفارسية لا بالعربية تيسيراً على الناس .

3. وحين رأى العرب أنهم لم يحققوا أهدافهم برغم ما عمدوا إليه من ممارسات فعالة تجاه شعوب الأتراك ، انتزعوا بخارى من أيدي أهلها وقسموها بين العرب، وعوملت سمرقند على هذا المنوال، وألزم كل واحد من أهلها أن يسلم ما بيده من سلاح.

ومن الدراسات التاريخية الجادة والقيمة والتي بحثت بعمق أثر الفتح العربي لآسيا الوسطى، تلك الدراسة التي أعدها باحثين من أوزبكستان، بوريبوري أحمدوف، ومنوروف زاهدوف، بعنوان "العرب والإسلام في أوزبكستان تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم" وقد كشفنا في ثنايا دراستهم عمق واستمرارية التأثير الذي أحدثته فتوحات العرب لأقاليم آسيا الوسطى، ولا شك في أن هذه الدراسة تعتبر من الدراسات الفريدة في مضمار التأثير العربي على آسيا الوسطى وشعوبها وحتى اليوم، وبرغم أنهم ممن خضع للمؤثرات العربية القديمة، وتحولت قبائلهم بفعل الحملات العسكرية العربية القوية إلى الإسلام، فإن ذلك ليقدم نموذجاً ساطعاً على ديمومة هذا التأثير وقابليته وثباته عبر الأجيال والقرون.

لقد نقدوا الفتح العربي وحلّوا كافة جوانبه وانعكاساته على شعوب المنطقة، إلا أنهم أنصفوا الفتح العربي رغم إيمانهم بقسوته وشدته، أنصفوه على الغزو المغولي والاجتياح الروسي والقيصري والبلشفي، وفضلوه عليها. ويقولون في هذا الصدد : "دونما تحييز، يمكننا اعتبار أن هذه الحقيقة التاريخية كانت غزواً بكل ما يحمله الكلمة من معنى، إذ أريق الدماء، وجرت أعمال تدميرية، وانتقصت حقوق السكان المحليين، وغدا الإسلام الدين الرسمي، واللغة العربية اللغة الرسمية، ذلك أن الغاзи أو المحتل كان دائماً وفي مختلف العصور يفرض نظمه وأفكاره على الشعوب والبلدان الخاضعة له، ولا يستثنى العرب منهم ولكن من باب العدل والإنصاف ينبغي القول، أنه لا مجال لمقارنة

الغزوات العربية بالغزوات المغولية أو الروسية أو البلشفية، فالبلاشفة، مثلاً نهبوا تركستان وسلبوها، ليس مادياً فقط بل روحياً أيضاً، وانتهجوا سياسة القضاء قضاءً جذرياً على التراث الثقافي والتقاليد والعادات، وباختصار لقد حاولوا بطرق شتى حملنا وحمل أجيالنا المقبلة على نسيان تاريخنا وحضارتنا وثقافتنا العريقة، أما الإسلام-كظاهرة اجتماعية وفكرية داعياً إلى عبادة الله وحده- فقد أثبت أنه عقيدة قادرة على توحيد المدن والبلدان والقبائل والشعوب المختلفة، وكان للإسلام أثر كبير في أخلاق الناس وعاداتهم وبفضله تم القضاء على العيوب الاجتماعية كزواج المحارم....." (15).

وإذا كانت الخلافة العربية في عهد الأمويين نجحت في ضم آسيا الوسطى إليها بعد حروب طاحنة دامت أكثر من أربعين سنة (16)، (674م-715م) الأمر الذي يشير إلى أن الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تعيشها بلدان آسيا الوسطى، وحققت انتصارات متتالية فإن ذلك حصل بسبب الانقسام والتفتت الإقطاعي في آسيا الوسطى، وكذلك النزاعات الإقطاعية التي شملت آنذاك تلك المنطقة الشاسعة المترامية الأطراف، ويطلعنا أحمدوف وزاهدوف، وفقاً للمصادر العربية والصينية، أنه كان في آسيا الوسطى قبيل قدوم العرب إليها، زهاء 15 إمارة إقطاعية إنما شكلت أرضية خصبة أمام العرب الفاتحين لتحقيق طموحاتهم وأهدافهم التي جاءوا في سبيلها من بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية.

ونجد في دراسة المؤرخين الأوزبكيين أنحيازاً منطقياً للجهود التي بذلها العرب سعياً لتحقيق نشر لعقيدتهم ولغتهم وثقافتهم، حيث ذهبوا إلى أن العرب الذين أولوا اهتماماً بالغاً في مناطق آسيا الوسطى التي فتحوها بنشر الإسلام، الذي لعب بالتالي دوراً تقديمياً، وغالباً ما كانوا يلجأون في ذلك إلى السبل السلمية ويعفون معتنقي الإسلام من دفع الخراج والجزية، وهي السياسة التي اتبعها الولاة العرب في خراسان وما وراء النهر منذ عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (17).

"أما اللغة العربية التي أصبحت منذ مطلع القرن الثامن الميلادي لغة الدولة ولغة العلوم لدى سكان آسيا الوسطى أيضاً، فقد صارت بالتالي وسيلة التفاهم والتعامل في الميادين الاقتصادية والسياسية والثقافية بين جميع الشعوب، فبواسطة اللغة العربية، بالتحديد، استطاعت شعوب آسيا الوسطى الاطلاع على مؤلفات علماء اليونان القدماء... كما أن الإبداعات الجليّة لأجدادنا أحمد الفرغاني، والخوارزمي، وابن سيناء، والبيروني، والفارابي، وغيرهم تمكنت من الظهور إلى حيز الوجود بفضل اللغة العربية. (18)

ما كتبه المؤرخ كليفورد بوزورث (Bosworth) في كتاب تراث الإسلام (Islam Legacy) الذي اشترك معه مجموعة من المؤرخين، حيث كتب مقالة بعنوان "الحدود القصوى للإسلام في أفريقيا وآسيا" جاء فيها على ذكر دخول العرب آسيا الوسطى منذ العام 654م، وأقر بوزورث أن العرب واجهوا صعوبات عظيمة وبذلوا جهوداً شاقة في منطقة آسيا الوسطى، لسببين

جغرافية المنطقة التي تكاد تكون مجهولة للعرب الفاتحين، ومقاومة الأمراء الإيرانيين للعرب بقوة وعنف، حتى أن الأمراء الإيرانيين، كانوا في أكثر من مرة يستنجدون بالأتراك والصينيين لمساعدتهم في مواجهة وصد الغزاة العرب، وكغيره من المؤرخين، يقر بوزورث أن العرب إنما تم لهم تحقيق الهيمنة والفوز على شعوب آسيا الوسطى بقيادة القائد العربي قتيبة بن مسلم الذي أدخل الإسلام بمؤثراته المختلفة إلى المنطقة، كما أوضح أن العرب أبدوا عجزاً واضحاً أمام اجتياز آسيا الوسطى إلى الصين، وذلك بسبب العقبات والدواجز الجبلية المتمثلة بجبال البامير وجبال تيان-شان. (19)

ويحاول بوزورث أن يرفض الرواية الواردة في بعض المصادر التاريخية عن تغلغل العرب في كاشغر في إقليم تركستان الشرقية، والواقع أن أغلب المصادر العربية الأولى أكدت على أن قتيبة بن مسلم غزا وفتح كاشغر سنة 96هـ/714م وذلك عقب فتحه لمدينة فرغانة (20).

ثانياً: الوسائل العسكرية والسياسية.

1- الوسائل العسكرية.

لا شك في أن استخدام العرب المسلمين لقوتهم العسكرية كانت من أبرز ملامح التأثير على الشعوب، فلولاء الجهد العظيم الذي بذله قادة الفتح الإسلامي، ومنهم قتيبة بن مسلم الباهلي، في فتوحه في آسيا الوسطى، لما أمكن للعرب إحداث تغيير لدى الشعوب المجاورة، إذ من الطبيعي أن يرفض الآخرون عقائد

وثقافة غيرهم، ناهيك عن أن يخضعوا لهيمنة الأغراب، ولا يمكن للباحثين إلا أن يضعوا الجهد العسكري وما ترتب عليه من نتائج في مقدمة وسائل التأثير المباشرة، إذ أنها أو جدت بفعل القوة، الأرضية التي يمكن من خلالها الاحتكاك مع الشعوب بشكل مباشر، والعرب في تعاملهم مع شعوب آسيا الوسطى انطلقوا من هذه المفاهيم الواقعية، وأدركوا، كما أدرك الفاتحون من قبلهم، أن تحقيق الهيمنة السياسية من خلال الحركة العسكرية هي الوسيلة التي تضمن لهم الوصول إلى نشر معتقداتهم وثقافتهم وتحصيل مكاسب اقتصادية كبيرة وكثيرة، لذلك لعبت الحملات العسكرية وما ترتب عليها من ممارسة العرب في تجريد البلاد المفتوحة من السلاح، وإشراك جيوش ممالك الأقاليم المفتوحة في العمليات العسكرية، دوراً هاماً في بلوغ الغاية من تغيير لمعتقدات قبائل آسيا الوسطى، والتأثير عليها ثقافياً.

I- الحملات العسكرية.

عند مطالعنا للمصادر العربية الإسلامية، لا سيما التي اعتنت بفتوح العرب وحروبهم مع شعوب الترك في آسيا الوسطى، لوجدنا أنهم بذلوا جهداً عظيماً في هذا المضمار، وأنهم أدركوا بحسهم الثاقب أن تلك الشعوب وبلادها موطن خصب، وذلك فيما يتعلق بانتشار المعتقدات الوثنية فيها، وأنها شعوب خاضعة فعلياً لهيمنة وسيادة غيرهم، إذ سيطرت عليهم الفرس سنوات طويلة، بل كانت امتداد طبيعي لحضارة فارس القديمة، والذين فرضوا عليهم بوسائل متنوعة وقاهرة، الديانة الزردشتية والثقافة الإيرانية، وسنلاحظ، عندما نستعرض سلسلة الفتوحات

والمعارك العربية الإسلامية في آسيا الوسطى، إن موقف سكانها انقسم الى قسمين، قسم رحب بالفاتحين العرب وأعلنوا عن رغبتهم في الانضمام الى القوات العربية، وغالبية هؤلاء من الأتراك، وقسم أبدى مقاومة عنيفة ضد ما سموهم الغزاة العرب، وهم يمثلون رمز السيادة الفارسية في تلك البلاد، والتي فرضت على الأتراك حياة يسود فيها الإقطاع والطبقية، (التمييز العرقي)، نضيف الى ذلك الصراعات الداخلية والانقسامات السياسية.

وقبل ان نعالج فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي على آسيا الوسطى، ينبغي ان نتوقف عند المحاولات الاولى التي بدأها العرب بعدما اسقطوا حضارة فارس وتم لهم احتلال إيران بالكامل، فقد كانت أول محاولة عسكرية سنة 42هـ / 622م حيث غزا قيس بن الهيثم السلمي الترك وحاصر مدينة بلخ وتم الاتفاق بينه وبينهم على الصلح (21)، وفي سنة 45هـ - 50هـ / 65-670م تمكن الحكم بن عمرو الغفاري من قطع نهر سيحون، ليغزو من بعد ذلك بلاد السغد في سمرقند وما جاورها (22)، وفي سنة 051هـ - 53هـ / 671م / 672م) أوقع الربيع بن زياد الحارثي بالأتراك وتمكن من احتلال مدينة بلخ وقطع عبيد الله بن زياد نهر سيحون ووصل الى جبال بخارى سنة (54هـ - 55هـ / 674م) وهزم الأتراك وأجبر ملكة بخارى على طلب الصلح فصالحها (23)، ثم دخل سعيد بن عثمان مدينة بخارى سنة (55هـ - 59هـ / 674-678م) ونجح في فتح مدينة سمرقند وأخضع قبائل الختل التركية (24) كما قطع مسلم بن زياد نهر سيحون

سنة (58هـ-65هـ/677م-684م) وأتى مدينة سمر قند وصالحه السغد، ووجه مسلم وهو بالسغد جيشاً إلى مدينة خجندة، إلا أن قواته هزمت وردت على أعقابها (25)، وسار المهلب بن أبي صفرة والي خراسان في خمسة آلاف محارب وقطع بهم نهر سيحون، فنزل مدينة كش، ثم بعده ابنه حبيباً في أربعة آلاف وتقابل مع صاحب بخارى وكبس بعض جنده وذلك في سنة (79هـ/698م) (26). سبع محاولات بدأت منذ سنة 42هـ/662م ولغاية (79هـ/698م)، ونلاحظ أنها جميعها حدثت في عهد الدولة الأموية التي تمكنت من إقليم خراسان كما تتمكن من إقليم بلاد الشام، وبرغم اندفاع الأمويين تجاه آسيا الوسطى إلا أن تلك الحملات، وبمنظرة متفحصة للمصادر العربية الإسلامية، نستطيع أن ندرجها في سلسلة المعارك أو الغزوات السريعة، والتي لم يترتب عليها أية تأثيرات عقائدية وثقافية إطلاقاً، بل لم تحدث أي استقرار للهيمنة الأموية عليها، وبالتالي، فإن جميع الحملات السابقة لا يمكن اعتبارها من الحملات الناجحة في إيصال مؤثرات العرب العقائدية والثقافية والسياسية إلى شعوب آسيا الوسطى، وذلك لعدم تمكن العرب من السيطرة الفعلية على أرضها وشعوبها.

وحيثما نستعرض حملات قتيبة بن مسلم الباهلي، نلمس سياسة أموية حربية مختلفة تمام الاختلاف عن سابقتها من الحملات العسكرية، فإن قتيبة لم يغزو ويحارب ويستقر هناك، وقد أنجز وحده ما بين عام 87هـ/705م وحتى عام 96هـ/714م، ما لم تنجزه غيره من القادة والدول، ففي بحر تسع

سنوات قاد أكثر من ثلاث عشرة حملة عسكرية جاب فيها غالبية أقاليم ومدن آسيا الوسطى، ندرك من خلالها، كم كانت الدولة الأموية حريصة على إحداث التغيير العقائدي والثقافي وسط شعوب الترك في آسيا الوسطى.

وتحقيقاً للفائدة العلمية، نشير هنا إلى حركة الفتح العربي والتي قادها قتيبة بن مسلم الباهلي، حمل قتيبة سنة (87هـ/705م) على ملك بادغيس، إلا أنه طلب الصلح فصالحه قتيبة (27) وفيها أيضاً غزى مدينة بيكند (28) ثم في سنة (88هـ/706م) غزا نومشكت واربميشنه (29) بينما في سنة (89هـ/707م) غزا مدينة بخارى وفتحها (30) وفي سنة (90هـ/707م) غزا ملك السغد، فطلب منه الصلح فصالحه (31) وفي نفس العام فتح مدينة الطالكان (32) أما في سنة (91هـ/709م) فقد شن حرباً على الجوزجان، واستسلم أهلها للجيش العربي (33) وفي العام نفسه احتل مدينة بلخ واستسلم له أهلها (34)، وفيها أيضاً استسلم لقتيبة ملك سمنجان (35)، ثم غزا مدينة شومان وكس ونسف في نفس العام (36)، وفي عام (93هـ/711م) وقع قتيبة معاهدة صلح مع ملك خوارزم، وأعقب ذلك فتح مدينة خام جرد (37)، كما حقق في نفس السنة فتحاً شاملاً لمدينة سمرقند (38) وغزا الشاشي وفرغانه" في العام (94هـ/712م) (39)، وأنهى هذه السلسلة من الفتوحات عام (96هـ/714م) حيث غزا مدينة كاشغر (40).

II- تجريد البلاد المفتوحة من السلاح.

لقد حرصت الدولة الأموية وبعدها حققت هيمنة سياسية وعسكرية على معظم اقاليم ومدن آسيا الوسطى، على فرض سياسة صارمة إزاء السكان، فاشتترطت في معظم معاهداتها مع ملوك وأمراء آسيا الوسطى ضرورة إخلاء المدن من حملة السلاح والقادرين حتى على القتال، وقد كان ذلك واضحاً في الاتفاقية التي أبرمت بين قتيبة بن مسلم الباهلي وملك السغد في سمرقند (41) كما قامت الدولة العربية بتطبيق قوانين عسكرية شديدة هدفت من ورائها الى تجريد السلاح من الأهالي، ومن جملة تلك القوانين تطبيق عقوبة الإعدام بحق من يضبط بحوزته أي نوع من أنواع الأسلحة، وهذا ما كشفت لنا عنه رواية الطبري حينما أوصى قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم والي سمرقند بأن من "وجدت معه حديدة أو سكيناً فما سواه فاقتله" (42). في نفس الوقت كانت الأوامر تصدر للمقاتلين العرب بعدم إلقاء السلاح، بل حمله معهم أينما يذهبون، سواء الى المساجد أو الى الأسواق والطرقات، وذلك بسبب مخاوف القيادة العربية على تعرضهم للإيذاء على يد الأتراك حيث لم يكونوا قد حققوا مأمّنهم في تلك الديار بعد (43).

لم يكتف العرب بتجريد السكان من السلاح فحسب، بل طبقوا سلسلة من الإجراءات الصارمة بحق السكان للحيلولة دون حصولهم على السلاح فأخضعوا المدن للمراقبة الدائمة، وراحوا يرصدون حركة العبور والخروج، فسمحوا لمن يريد الدخول للمدينة بقدر الوقت الذي يقضي فيه حوائجه ثم يلزم بالخروج، ومن التعليمات التي وردت عند الطبري والتي وجهها قتيبة لأخيه والي سمرقند،

ان يعدم كل من يخالف القوانين، وطلب منه أيضاً، توشيح العابرين بعلامات تدمغ بالطين الملون، وإن جفت الطينة قبل ان يخرج فإن عقوبته القتل (44)، وهذه الرواية وإن كانت تحمل جانب المبالغة، إلا أنها تعكس حالة الاستنفار القصوى التي فرضها العرب على شعوب آسيا الوسطى.

لم تقف ممارسات العرب في مدن آسيا الوسطى عند تلك الحدود، بل نجد والي سمرقند يعلن خطراً للتجول ليلاً في شوارع وطرق سمرقند، وكانت عقوبة المخالفين من الترك تصل الى حد الإعدام (45). ومورست كذلك سياسة الإبعاد كعقوبة رادعة بحق أولئك الذين يشكلون خطراً على الأمن والسيادة العربية الإسلامية، فقد أبعد قتيبة جماعة من أهل بخارى حاولوا التمرد على دولة العرب وأثاروا القلاقل، أبعدهم الى العراق وقام الحجاج بإسكانهم واسط ليضعهم تحت المراقبة التامة واستمروا محتجزين في واسط حتى سقطت الدولة الأموية سنة (132هـ/750م) (46).

وحتى يحقق العرب هيمنتهم الكاملة على بلاد آسيا الوسطى، فقد نشروا الحصون في أنحاء مختلفة من بلاد ما وراء النهر، حيث رابطت فيها قوات عربية إسلامية منطمة، سعت الى مراقبة سكان المدن وحرمانهم من الحصول على الأسلحة او أية إمدادات عسكرية من الخارج، وبذلك تحقق للعرب من أن يعزلوا معظم قبائل آسيا الوسطى وحرموهم من الاتصال مع قبائل الترك الشمالية، ومن تلك الحصون، حصن قصر الباهلي، وحسن المرجة وحصن الدبوسية وغيرها (47).

ج- إشراك ودمج جيوش الترك في عمليات العرب الحربية.

نلاحظ ان العرب كانوا يطورون ممارساتهم واساليبهم الحربية والسياسية لبلوغ مرحلة التأثير الحضاري على شعوب آسيا الوسطى، فلم يقفوا عند حدود آلية واحدة من آليات العمل، بل نراهم يضعون خططاً مرحلية كانت ذات جدوى كبيرة بدأت ملامحها في الظهور عندما بدأ الإسلام بثقافته وعقيدته يجد طريقاً الى الانتشار والقبول بين الناس.

ومن تلك الممارسات المؤثرة، ان الفاتحين العرب كانوا يشترطون على ممالك الأقاليم المفتوحة تقديم مساعدات حربية للمقاتلين العرب، اما على شكل معونات مادية او إمدادات اسلحة، بل أصروا علي المتعاهدين معهم ان يقدموا مقاتلين مع كامل معداتهم الحربية لينخرطوا في جيش العرب، ويقاتلوا معهم جنباً الى جنب الإمارات التركية المستعصية على الفتح الإسلامي، فقد انضم الى جيش قتيبة اعداد كبيرة من المقاتلين في مدينة بخارى، وكان ذلك من شروط الصلح معهم (48). كما ان نيزك البرقشي ملك بادغيس شارك هو بنفسه مع جيشه في عمليات قتيبة الحربية في بلاد ما وراء النهر وذلك سنة 86هـ/705م (49)، ويشير الطبري انه في عام 94هـ/712م فرض قتيبة على اهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرون الف مقاتل وجههم بحملته الى بلاد الشاش (50)، بينما يطلعنا ابن اعثم الكوفي، وذلك في سنة 96هـ/714م، وبعد مقتل القائد قتيبة، انه كان بصحبته من المحاربين قرابة عشرة آلاف مقاتل من أبناء بلاد ما وراء النهر (51)، وقد لاقت هذه الممارسات العربية

ردود فعل عنيفة لدى بعض قادة الترك في آسيا الوسطى، بل وصل الأمر عند ملك السغد ان يحقر العرب على تلك الأساليب، وذلك حينما حاصرت القوات العربية بقيادة قتيبة مدينة سمرقند ارسل اليه ملك السغد يقول: "أيها أمير، أنت إنما تقاتلني بإخواني من العجم، فأخرج الى العرب حتى تعلم كيف أحاربهم".(52).

ومحصلة الأمر، فإن هذه الممارسات والأساليب التي اندفع العرب الى تطبيقها قد حققت مكاسب كبيرة على صعيد الأمن وخلق مؤثرات عقائدية مباشرة، إذ أدت هذه السياسة الى تفريغ المدن من المقاتلين، وتركت العرب في تلك المدن في مأمن كبير سمح لهم بحرية نشر الدعوة والاحتكاك مع شعوبها بحرية كبيرة، أضف الى ذلك، ان تلك الجيوش تحملت الكثير من الأعباء القتالية عن العرب، مما أدى الى مساعدة الجيوش العربية وحمايتها من الأخطار، كما قدمت للعرب، وبحكم معرفتهم لشعوب وجغرافية المنطقة، خدمة كبيرة في حرية الحركة وتحقيق الانتصارات المتلاحقة.

2- الوسائل السياسية.

على الرغم من الاستراتيجية التي وضعها العرب في فتح آسيا الوسطى والتي طغى عليها الجانب العسكري بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إلا أنهم وهم حريصون على إدامة المعارك والحروب وفرض الحصار ومعاقبة الرافضين لهم ولحضارتهم، نجدهم كذلك احرص ما يكونوا على تطبيق الجوانب السياسية وتغليبها في كثير من الأحيان على الجانب العسكري، والحقيقة ان الظروف

التي هيأت للعرب من خلال فرض سياسة الأمر الواقع وإبداء مظاهر القوة، كانت من أبرز العوامل أمام العرب في تنفيذ مخططاتهم السياسية الرامية الى بسط هيمنتهم ونفوذهم على شعوب آسيا الوسطى، ونلاحظ من خلال تفحصنا للمصادر الأولى ان العرب مارسوا جملة من الترتيبات السياسية والتي أظهرت قوة عزيمتهم وحنكتهم في مواجهة اصعب الظروف وأسوأ الحالات، فعملوا على توقيع معاهدات صلح مع البلدان المفتوحة، واقروا الحكام المحليين على ولاياتهم، وعينوا ولاة عرب لمدن الأقاليم، ومارسوا سياسة توطين العرب في الأقاليم.

أ- معاهدات الصلح:

تهيأت للعرب ظروفاً سياسية أثناء حملاتهم المتعددة على مدن وممالك آسيا الوسطى، من ذلك، ان العديد من أمراء وملوك تلك الأقاليم وجدوا المصالحة افضل الطرق للتخلص من قوة العرب، وتفادياً للمواجهات العسكرية المباشرة والتي توقع الكوارث والمآسي، في حين لم يتوانى العرب عن قبول مطالب أولئك الزعماء، فنجدهم يسارعون الى توقيع الاتفاقيات السلمية، بحيث يفرضون عليهم شروطاً تؤدي الى ربط مصيرها بقرار الدولة الأموية السياسي، ف عقدوا سلسلة من الاتفاقيات والمعاهدات، نظموا من خلالها علاقة العرب بتلك الدولة والإمارات، كما بينوا بوضوح التزامات تلك الدول تجاه الدولة الإسلامية سياسياً وعسكرياً ومادياً، وكانوا أشد حرصاً على فرض نفوذهم الشامل، لتوضع تلك الممالك تحت حماية ووصاية المسلمين، في الوقت الذي اتخذت

فيه كافة التدابير والضمانات تمهيداً الى نشر العقيدة الإسلامية وثقافة العرب المسلمين.

وعندما نطالع مصادرنا العربية قريبة العهد بفتوحات العرب في عهد الدولة الأموية في آسيا الوسطى، لا نجد - للأسف - نصوصاً ولا وثائق كاملة تنص على فدوى تلك المعاهدات، بل نجد كافة المصادر تكتفي بإيجاز في إبراز مفردات الاتفاقية واهم ما تمخضت عنه لكلا الطرفين، العرب المسلمين وشعوب آسيا الوسطى، وعدم ورود نصوص لمعاهدات واتفاقيات العرب مع الأتراك والإيرانيين، يجعلنا نتساءل عن مصيرها إن هي كتبت ووثقت ووشحت بالتواقيع والشهود، إذ أن وجود مثل تلك الوثائق تنطوي على أهمية كبيرة جداً للتعرف على آلية مؤثرة وهامة سعى الى ممارستها العرب مع بقية الشعوب، وتكتفي المصادر بذكر اتفاقيات الصلح ذكراً عابراً مع الوقوف على بعض فقراتها، ونعطي أمثلة على ذلك: - صالح قتيبة أهل بلخ سنة 86هـ/705م (53) وصالح قتيبة أهل باذغيس على ألا يدخلها قتيبة وذلك سنة 87هـ/708م (54) وصالح ملك خوارزم سنة 930هـ/ (55). وهكذا دون أن يذكر نصاً لتلك الاتفاقيات، ومع ذلك فربما نستثني ما أورده المؤرخ ابن اعثم الكوفي من صورة المعاهدة التي وقعت بين القائد العربي قتيبة بن مسلم وملك سمرقند سنة 94هـ (56)، غير أن هذه النسخة أغفلت حسب إشارات المصادر الأخرى بعض بنود المعاهدة، بل إن ابن اعثم نفسه أشار الى بعض تلك الشروط التي خلت منها النسخة التي أوردها (57) وبالتالي لا يمكننا الاعتماد عليها تماماً كنموذج لمعاهدات

المسلمين مع ممالك الترك في آسيا الوسطى، وإن هي قدمت أفكاراً حول طبيعة المعاهدات ونصوصها، غير أنه يمكن بناء نموذج معاهدة اعتماداً على ما أوردته المصادر التاريخية من إشارات هنا وهناك.

- حددت الاتفاقيات حدود المملكة الموقعة للمعاهدة والمناطق التابعة لها بدقة ووضوح، فمثلاً نصت معاهدة سمرقند على أن قتيبة بن مسلم صالح ملكها "غوزك بن أخشيد أفشين السغد" على سمرقند ورسايقها أرضها ومزارعها وجميع حدودها (58).

- تحديد مبالغ الجزية المترتبة على المملكة وطريقة دفعها نقداً أو عيناً، فكانت الجزية المفروضة على بخارى (200 ألف درهم) (59) وعلى سمرقند (2 مليون ألفي ألف، نقداً معجلاً، و 200 ألف درهم سنوياً، و 3 آلاف رأس من الرقيق ليس فيهم صبي ولا عجوز) (60).

- ضيافة المسلمين، وحددتها معاهدة سمرقند بثلاثة أيام، (61).

- تقديم المساعدات العسكرية للمسلمين عن طريق مشاركة جيوش الممالك الموقعة مع جيش المسلمين في العمليات العسكرية في إقليم ما وراء النهر، فكان من بنود معاهدة الصلح مع بخارى أن "يعين أهل بخارى قتيبة بأنفسهم" (62).

- إطلاق سراح الأسرى المسلمين، فقد ورد في المعاهدة الموقعة بين قتيبة ونيزك ملك بادغيس "أن يطلق - نيزك - من عنده من أسرى المسلمين (63) واشترط سعيد الحرشي والي

خراسان في سنة 102هـ/720م على ثوار السغد وأخلافهم الأتراك في المعاهدة الموقعة بينهم "أن يردوا ما في أيديهم من نساء العرب وذرائعهم" (64). كما اشترط قتيبة حينما صالح ملك شومان، أن يطلق ملك بادغيس نيزك طرخان ما بيده من أسرى المسلمين(65).

- اشترط المسلمون في معاهداتهم على تسليم بيوت العبادة لهم، حيث اشترط قتيبة على أهل سمرقند "أن في صلحه بيوت الأصنام والنيران، وأخرجت الأصنام فسلبت حليتها وأحرقت، وكانت الأعاجم تعتقد ان فيها أصناماً من استخف بها هلك، فلما حرقها قتيبة بيده أسلم منهم خلق (66).

- بناء المساجد في الممالك الموقعة للمعاهدات، فكان في صلح سمرقند "أنهم يبنون مسجداً في المدينة" (67) مما يعني ضمناً السماح بإشاعة المظاهر الإسلامية في تلك الممالك وعدم اعتراض انتشار الإسلام فيها.

- إخلاء المدن من الجيوش غير العربية، فكان في معاهدة سمرقند "على أنهم يخلون المدينة فلا يكون فيها مقاتل، ويدخلها قتيبة وأصحابه ويصلي ويخطب ويتغدى بها ثم يخرج" (68).

- تنفيذ تعليمات الدولة العربية الإسلامية، سواء كانت صادرة من الخليفة أو من والي المشرق أو من والي خراسان، فقد نصت معاهدة سمرقند "على ان يسمعوا ويطيعوا لعبد الله الوليد بن عبد الملك بن مروان، وللأمير الحجاج بن يوسف وللأمير

قتيبة بن مسلم". (69) مما يعني تجريد الدول سلطة اتخاذ القرار وربطها مباشرة بموافقة الدولة العربية.

- ضمان أمن وسلامة المسلمين في الممالك الموقعة للمعاهدة مع العرب المسلمين، فكان في معاهدة الصلح بين سعيد الحرشي وثوار السغد سنة 102هـ/720م "أن لا يغتالوا أحداً من المسلمين فإن أحدثوا حدثاً حلت دماؤهم" (70).

- ضمان حماية مصالح ومكتسبات ملوك الأقاليم، وأنهم يستمدون شرعيتهم في الحكم من خلال احترامهم والتزامهم مع العرب المسلمين، وأبدت المعاهدات، أن العرب هم الضامنون والمفوضون لهم بالملك، حيث جاء في معاهدة سمرقند "يقول قتيبة بن مسلم باني قد ملكتك يا غوزك بن أخشيد سمرقند وارضها وحدودها وكش ونسف وبلادها وحصونها، وفوضت إليك أمرها، وأخذت خاتمك عليها لا يعترض عليك معترض، وأن الملك من بعدك لولدك أبداً ما دامت لي ولاية بخراسان (71).

- أن التزام الممالك بالمعاهدات مع العرب المسلمين هو ضمان التزام المسلمون بها ، جاء في معاهدة سمرقند "يؤدي غوزك بن أخشيد أفشين السغد ما صالحه عليه ابن قتيبة وعلى قتيبة ابن مسلم العهد والميثاق أنه لا يعمل غوزك بن أفشين السغد بشيء ولا يغدر به ولا يأخذ منه أكثر مما صالحه عليه. (72)

- التزام المسلمين بأمن وسلامة المملكة الموقعة للمعاهدة، وحمايتها من الأخطار الداخلية والخارجية، فقد تعهد قتيبة

بن مسلم في معاهدة سمرقند أنه إذا " حرج على غوزك عدو من الأعداء فعلى قتيبة أن ينصره ويعاونه على عدوهم (73) .

ب _ تعيين حكام عرب لمدن الأقاليم :

رأى العرب أن من أجدى الوسائل وأنجحها في ضمان السيطرة على الأقاليم والمدن وإدامة التأثير الديني والثقافي على سكان المنطقة تعيين حكام إداريين من العرب بعد السيطرة على الإقليم، ولذلك، وتحقيقاً لهذه الاستراتيجية اندفع الأمويون نحو تعيين حكام إداريين للمناطق المفتوحة، وعند دراستنا للمصادر العربية القديمة نجد بعضها أشار إلى حكام عرب واستثنى آخرين في مناطق أخرى، إلا أننا نستطيع أن نصل إلى وضع صورة شبه متكاملة حول هذه السياسة، ونشير هنا إلى المحاولات العربية الأولى التي سبقت حملة قتيبة على بلاد ما وراء النهر، حققت انتصارات عادت بالنفع على الدولة العربية، إلا أن هذه المحاولات كانت محدودة واقتصرت على حملة سعيد بن العامي سنة 29هـ/على طبرستان وجرجان (74) إلا أن المصادر لم تشر إلى أن العرب عينوا ولاية وعمالاً عليها، بينما حرصت الحملة العربية بقيادة قتيبة على تنفيذ هذه السياسة تنفيذاً مباشراً، فقد خلف قتيبة أخاه عبيد الله بن مسلم الباهلي على خوارزم (75) واستخلف على مرو إياس بن عبد الله بن عمرو (76) وعلى مرو أيضاً أخاه بشار بن مسلم الباهلي (77) وخلف أخاه صالح بن مسلم الباهلي على ما وراء النهر (78) ، واستعمل على الطالقان أخاه عمرو بن مسلم الباهلي (79) وعلى الجرجان عامر بن مالك الحاماني (80) واستخلف قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم على بلخ (81) وعلى سمرقند

أخاه عبد الله بن مسلم الباهلي(82) وكذلك أمر على بخارى الوزير بن أيوب بن حسّان، وهو أول أمير لبخارى من قبل قتيبة(83) وأمر على بخارى ورقاء بن نصر الباهلي(84) وعيّن على بيكند رجلاً من أقاربه لم تحدده المصادر العربية (85) كما كان له عاملاً على شومان، لم تحدده المصادر أيضاً(86) ثم عيّن مكانه إياس بن عبد الله على حربها وعلى خراجها عبيد بن عبيد الله(87) وكان واصل بن عمرو أميراً على بخارى أيام نصر بن سيار(88) وفي خلافة هشام بن عبد الملك تولى نصر بن سيار طخارستان (89) واستعمل أسد بن عبد الله والي خراسان على سمرقند الحسن بن أبي العرمطة(90). ولقد ربطت أمانة خراسان ممثلة بقائدها قتيبة بن مسلم مصير هذه الولايات والمدن بقيادتها المركزية في مدينة مرو، فكانت تخضع للمراقبة بينما تفد الأخبار منها إلى حاضرة إقليم خراسان للعمل على مواجهة أية مخاطر أو إنحرافات من قبل السكان المحليين، إضافة إلى أن مهام أولئك الأمراء العرب هي تمثيل السلطة العربية الإسلامية في المدينة وإظهار هيمنة الدولة عليها، وإمامة المسلمين في الصلاة، ومراقبة الحدود والثغور وقيادة الحامية العسكرية، وكذلك تحمّل أعباء ومسؤولية القضاء بين المسلمين المتواجدين في المدينة(91)

كما كان من أولويات الحكّام العرب في المدن والأقاليم العمل على تهيئة المناخ المناسب لإظهار الإسلام ونشره بين السكان، وحاولوا وصولاً إلى تحقيق هذا الهدف، خلق وتوفير أجواء آمنة للمسلمين أولاً وللسكان المدن والأقاليم ثانياً ، وإشاعة السلام بين الناس لفتح باب الحوار بينهم لدعوتهم إلى الدين الجديد والثقافة

العربية التي حملها معهم الفاتحين العرب ، ويذكر في هذا الصدد أن الجنيد بن عبد الرحمن والي المنطقة زمن هشام بن عبد الملك قد سعى للاجتماع مع خاقان الترك، وعندما تم له ذلك أخذ يعرض الإسلام ومبادئه عليه، مجيباً خلال ذلك على أسئلة الخاقان، ولما أنهى الجنيد حديثه قال له الخاقان: "لقد ألقيت لي فكراً طويلاً (92) ورغم عدم إفصاح المصادر عن النتيجة النهائية التي تمخّص عنها هذا اللقاء، إلا أن هذا يعطينا دليلاً واضحاً حول مهام الحاكم العربي في مجال الدعوة للإسلام، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ النرشخي من أن اثنين من دهاقنة بخارى أسلموا على يد الوالي، نصر بن سيار (93).

كما سعت السلطة العربية من خلال ممارسات الحكام العرب في المدن والأقاليم الى ضبط حركة السكان ضبطاً دقيقاً، حتى لا تتسرب الفوضى والاضطراب الى المدينة او الإقليم وقد حددوا لهم اوقات معينة لعبور المدن والخروج منها، كما سيطروا على ابواب المدن وجعلوا عليها حراسات مشددة غاية التشديد، ورواية الطبري تكشف لنا عن جميع هذه الممارسات، فعندما استخلف قتيبة بن مسلم أخاه عبد الله بن مسلم على مدينة سمرقند، خلف عنده جنداً كثيفاً، وآلة من آلة الحرب كثيرة، وقال: لا تدعن مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد، وإن جفت الطينة قبل ان يخرج فاقتله، وإن وجدت معه حديدة، سكيناً فما سواه فاقتله، وإن أغلقت الباب ليلاً فوجدت أحداً منهم فاقتله (94).

ج- إقرار الحكام المحليين.

أن من أكثر الممارسات السياسية التي سعى إلى تنفيذها الفاتحون العرب لآسيا الوسطى، تأثيراً على سكان وشعوب المنطقة، إقرارهم للملوك والأمراء الإيرانيين والأتراك على ممالكهم وإماراتهم، "فقد أدت الفتوحات العربية إلى التعجيل في عملية تقسيم الأسرة المتمسكة بالتقاليد القديمة، ونتيجة النضال والإغراء بالوعود، استطاع القادة العرب استمالة الدهاقنة الإقطاعيين وجعلهم حلفاء لهم، مما سهل عليهم إبقاء الشعب خاضعاً ومطيعاً لهم (95)، والحقيقة أن العرب أجروا تغييرات سياسية هامة تتناسب وطبيعة المرحلة التي يواجهونها، لا سيما أنهم في مناطق واسعة وكثيرة الشعوب والقبائل ومتعددة الممالك والحكومات، ولذلك سعوا بداية إلى تحقيق مكاسب سياسية سريعة يكون لها مؤثرات مهمة لا تقل عن تحقيق الانتصارات العسكرية، فالتجأوا إلى تنفيذ أسلوب القبول بالصلاحات السياسية، وترك حكم المدن والأقاليم لأيدي الخدات (الأمراء) على أن يشترك معه في الحكم عامل من قبل الخليفة يأتي في المرتبة الثانية، "ولم يلبث عامل الخليفة- على رأي فامبري- هذا أن يترقى إلى مراتب الإمارة فما بعد ويصبح صاحب السلطان الفعلي، ويهمل أمر الأمراء الأتراك (96).

والأمثلة في مصادرنا العربية كثيرة حول إقرار العرب للأمراء والملوك المحليين، وإجراء معاهدات صلح واتفاق معهم، ففي سنة 86هـ/705م وهي البدايات الأولى لانطلاقة الفتح العربي لآسيا الوسطى بقيادة قتيبة بن مسلم، أن دهاقنة بلخ وعظمائها تلقوا الفاتحين العرب بالترحاب وساروا مع قتيبة، ثم لما قطع نهر بلخ

تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب، وهو مفتاح المدينة، ودعاه الى بلاده، وسار الى طخارستان فجاءه حاكمها وصالحه على فدية أداها إليه، وقبلها قتيبة. (97). ونلاحظ أيضاً، أن قتيبة في كل معاهدة صلح عقدها مع ملوك وحكام مدن وأقاليم آسيا الوسطى، يمنح هؤلاء إقراراً في الاستمرار بالحكم، كما حدث سنة 86هـ/705م عندما صالح أهل بلخ، وسنة 87هـ/705م، بادغيس، وسنة 93هـ/711م خوارزم، وسنة 90هـ/708م سمرقند (98).

على ان اتفاقية الصلح التي أبرمها قتيبة بن مسلم مع ملك السغد في مدينة سمرقند، تعطينا صورة واضحة عن مدى اهتمام العرب في تحقيق انتصاراتهم عن طريق الوسائل السلمية من خلال توقيع وإبرام المعاهدات.

"وعلى قتيبة بن مسلم العهد والميثاق انه لا يعمل على غوزك بن أخشيد أفشين الصغد بشيء ولا يغدر به ولا يأخذ منه أكثر مما صالحه عليه، فإن خرج عليه عدو من الأعداء فعلى قتيبة بن مسلم ان ينصره ويعاونه على عدوه، ويقول قتيبة بن مسلم بأني ملكك يا غوزك بن أخيد سمرقند وارضها وحدودها وكش ونسف وبلادها وحصونها، وفوضت إليك أمرها، وأخذت خاتمك عليها، لا يعترض عليك معترض، وان املك من بعدك لولدك أبداً ما دامت لي ولاية بخراسان" وقد كتبت الاتفاقية سنة 94هـ/712م (99).

ولا يعفي حكام وملوك اقاليم آسيا الوسطى إن هم وقعوا معاهدات صلح مع العرب المسلمين من ان يقوموا بالالتزام بما

يمليه عليهم العرب من شروط، ومن أهمها تعيين عمالاً عرباً، ودفع ضرائب مالية مجزية، فقد التزم حاكم سمرقند للعرب بدفع ما نصت عليه الاتفاقية، وهي ألف ألف درهم عاجلة، ومائتي ألف درهم في كل عام، وثلاثة آلاف رأس من الرقيق ليس فيهم صبي ولا شيخ" (100). كما عقد حاكم بيكند صلحاً مع قتيبة مقابل أتاة كبيرة، مصنوعات من الذهب والفضة، وكمية ضخمة من الأسلحة، وقام العرب بصهر المصنوعات هذه من الذهب والفضة ولما وزنوها بلغ وزنها 150 ألف مثقال (101). عقدت تاختاشادا ملكة بخارى اتفاقية سلام مع عبيد الله بن زياد كلفتها أتاة باهظة جداً قدرها مليار درهم نقداً، وأخذ العرب معهم 4000 أسير، من بينهم ثمانون أسيراً من سلالة الأسر الحاكمة وكبار المسؤولين (102).

د - توطين العرب في الأقاليم.

أن سياسة توطين العرب وإسكانهم المناطق المفتوحة سياسة تقليدية للدولة العربية الإسلامية، ففي معظم الحملات الأولى والتي قادها العرب في صدر الإسلام، وتحديدًا في العصر الأموي، مارس العرب سياسة نقل القبائل العربية من الجزيرة والشام والعراق إلى المناطق التي يتم فتحها عن طريق القتال أو التي يتم المصالحة مع سكانها، حدث ذلك في مصر وشمال أفريقيا والأندلس وإيران وشمال الهند، وآسيا الوسطى هي الأخرى تعرضت لنفس الممارسة، فقد قامت الدولة الأموية بتهجير القبائل بالإضافة إلى القبائل التي شاركت في الفتوحات، وتوطينها في كل المدن والأقاليم التابعة لآسيا الوسطى.

والحقيقة أننا ونحن نطالع صفحات المصادر التاريخية قريبة العهد بفتوحات قتيبة بن مسلم لبلاد ما وراء النهر وما حولها، نفتقر لوجود مادة تشير بشكل تفصيلي وشامل لأسماء المدن التي توطنها واستقر بها العرب، علماً بأن مدن آسيا الوسطى مدناً كثيرة، وعندما نتتبع جهود القائد قتيبة نجده لم يترك إقليماً ولا مدينة من مدن آسيا الوسطى إلا ووصلها بقواته وقام بفتحها أو صالح أهلها، مما يجعلنا نميل إلى التأكيد على أن العرب توطنوا جميع مدن وأقاليم المنطقة، وهذا يتفق مع ما ذهب إليه البلاذري من "أن قتيبة أسكن العرب ما وراء النهر، حتى أسكنهم أرض فرغانة والشاس (103)، وعندما زار اليعقوبي خراسان (ت284هـ/897م) وصف سكانها قائلاً "وفي جميع مدن خراسان قوم من العرب من مضر وربيعة وسائر بطون اليمن حتى مدينة أشروسنة (104) علماً بأن إقليم ما وراء النهر أحد ولايات خراسان بدلالة أن "خراسان أربعة أرباع... والرابع ما وراء النهر (105).

وقد درجت أغلب المصادر التاريخية على عدم الإفصاح عن عدد القبائل العربية ولا حتى أسمائها التي خلفها القائد قتيبة في مدن آسيا الوسطى، بل كانت في معظمها تكتفي بالتنويه إلى وجود واستقرار العرب فيها، وهنا، نقدم نماذج متعددة حيث وردت في مصادر متعددة، فيذكر الطبري، أن قتيبة بن مسلم خلف في مدينة بيكنند مجموعة من المسلمين (106) وطا فتح بخارى قسم بيوت وضياع الأهالي فيها مناصفة بينهم وبين العرب الذين أوطنهم فيها (107) وحين رأى العرب أنهم لم يحققوا

أهدافهم برغم ما عمدوا إليه من إجراءات مختلفة، انتزعوا بخارى من أيدي أهلها وقسموها بين العرب، فصار للبصريين ذلك الجزء الذي كان يمتد من بوابة العطارين حتى الحصن، وصار لليمنيين قسم آخر، وهكذا، كما عوملت سمرقند على هذا المنوال (108)، ويشير الطبري إلى أن قتيبة سنة 95هـ/913م خلف في بخارى قوماً ووجه إلى كش ونسف، ثم أتى مرو فأقام بها (109). كما وصف اليعقوبي ت282هـ/895م بخارى بقوله: "وبخارى بلد واسع من اخلاط من الناس من العرب والعجم (110) كما نسب اثنين من أبواب بخارى السبعة إلى قبيلتين عربيتين فكان اسمهما باب بني اسد وباب بني سعد (111) كما حوت بخارى جالية كبيرة من قبيلة الأزدي اليمنية (112)، وخلف قتيبة في سمرقند جماعة من المسلمين منهم الضحاك بن مزاحم صاحب التفسير (113) وفي سنة 96هـ/914م غزا قتيبة كاشغر وحمل مع الناس عيالاً لهم ليضعهم في سمرقند (114) وبلغ عدد المقاتلة العرب في سمرقند أثناء ولاية الجنيد بن عبد الرحمن زمن هشام بن عبد الملك خمسة آلاف رجل (115) وكانت قبيلة بكر بن وائل تمتلك كثيراً من رساتيق سمرقند (116).

وربما نجعل من رواية البلاذري حول اتصال أهل سمرقند بخليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز، نموذجاً على أن العرب لم يدعوا طريقاً من طرق التأثير المباشر من خلال ضمان توطين العرب إلا وسلكوها، فقد أشار البلاذري إلى أنه "لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرجعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على حين غرة، فكتب

عمر الى عامله يأمره ان ينصب قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا، فنصب لهم جميع بن حاصر الباجي فحكم بإخراج المسلمين على ان ينابذوهم على سواء، فكره أهل مدينة سمر قند الحرب، وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم (117).

وبناء على تلك الروايات التي جاءت بها مصادرنا العربية الإسلامية حول اهتمام العرب بممارسة سياسة التوطين في أغلب مدن آسيا الوسطى، نقف عند حقيقة غاية في الأهمية، وهي ان القيادة العسكرية التي قادت الفتوحات في إقليم آسيا الوسطى ما كانت تسعى الى تحقيق الفوز والمكاسب المادية واضعاف الممالك او إزالة بعضها، بل يلاحظ ان الهدف من وراء تطبيق سياسة التوطين هو خلق ضمانات مادية ملموسة للسيطرة الفعلية على إدارة المدينة وسياسة رعيته لترسيخ المفاهيم الدينية التي جاء بها العرب، بل تعدى الى اكثر من ذلك، ألا وهو العمل على نقل ثقافة وعادات وتقاليد العرب المسلمين الى بلاد آسيا الوسطى عن طريق نشر القبائل العربية بين الناس من خلال فرض سياسية الأمر الواقع عليها.

ثم نجد ان سياسة توطين العرب في اقاليم آسيا الوسطى حققت مكاسب عديدة للدولة الأموية لعل من أهمها إيجاد جالية عربية إسلامية تشكل قوة مساندة للحاكم العربي في مدن الأقاليم، وعندما نطالع أحداث سنة 102هـ/702م فإننا نعثر على رواية لابن الأثير مفادها ان سعيد ابن عبد العزيز الأموي والي خراسان، ارسل شعبة بن ظهير والياً على سمر قند بعد ثورة

احتدمت فيها، في حين لم تتدخل الجالية العربية هناك "فوبخ سكانها العرب وغيرهم بالجبن فاعتذروا أن واليهم جبّنه (118)، كما نلاحظ ان القيادة الأموية كانت توكل للجالية المتوطنة في الأقاليم مهمة مراقبة ومتابعة إسلام الأهالي خوفاً من ارتدادهم عن الإسلام فبعد ارتداد أهل بخارى أربع مرات رأى قتيبة من الصواب ان يأمر أهل بخارى أن يعطوا نصف بيوتهم للعرب ليقيموا معهم ويطلعوا على أحوالهم فيظلوا مسلمين بالضرورة، فأظهر الإسلام بهذه الطريقة وألزمهم بأحكام الشريعة... وكان يبذل في ذلك جهداً عظيماً ويعاقب كل من قصر في أحكام الشريعة (119). كذلك نجد أنه من واجبات الجالية الإسلامية المستوطنة دعوة الناس الى الإسلام في المدن المقيمة بها والمدن والقرى القريبة من محل إقامتهم، فقد قاموا خارج بخارى بدعوة المجوس، حيث كان هناك سبعمائة قصر مقيم فيها أغنياءهم، ففي يوم جمعة ذهب العرب المسلمون إليهم وطالبوهم بالامتثال الى تعاليم الإسلام وحثوهم على إقامة الصلاة (120)، أضف الى ذلك ان الجالية الإسلامية كانت تشكل مجموعات متمرسة لتعليم المعتنقين الجدد للإسلام شعائره وأخلاقياته وآدابه كما تقوم بتحفيظهم القرآن الكريم (121).

هـ- السفارات.

وهي الوفود الرسمية الداعية إلى الإسلام والتي كانت تأتي إلى بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى) من قبل خليفة المسلمين في دمشق عبر واليه على العراق وعلى خراسان، في الوقت الذي لم نقف فيه إلا على سفارتين فقط أفصحت عنهما المصادر العربية

الإسلامية، وبذلك تكون مصادرها العربية قد ضلت علينا فلم تذكر غيرهما، بل وليتها إذ أشارت إليهما فصلت لنا أخبارهما بشكل يوضح طبيعة وكيفية تلك السفارات.

السفارة الأولى في عهد عمر بن عبد العزيز ، حيث أشار البلاذري أنه " لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى ملوك ما وراء النهر يدعوهم الى الإسلام فإسلم بعضهم، اما السفارة الثانية فكانت في عهد هشام بن عبد الملك، حيث بعث هشام بن عبد الملك رجلاً الى خاقان الترك يدعوهم الى الإسلام، غير ان خاقان الترك أحجم عن اعتناق الإسلام بحجة أن إسلامهم سيمنعهم من القيام بعمليات السلب والنهب والغزو وهي مصدر معاشهم (122).

فالسفارة التي تمت في عهد عمر بن عبد العزيز مع صريح إشارتهم انها الى ملوك ما وراء النهر، فإنها لم تذكر هذه الممالك بل أنها لم تذكر من أسلم منهم على الأقل، وعلاوة على ذلك فإن صحت تلك الروايات، وكشفت لنا عن أسلوب جديد من أساليب التأثير عند الأمويين فإن إسلام أولئك لم يتأتى بتلك البساطة التي نصت عليها الرواية، إذ لا يعقل ان يسلم ملوك ما وراء النهر بمجرد وصول رسول من قبل الخليفة إليهم، علماً بأن قتيبة جاهدهم وحاربهم حروباً طاحنة وكانوا في أكثر من مرة يرفضون اعتناق الإسلام مع قبولهم الصلح ودفع الجزية والموافقة على الكثير من شروط المسلمين، بل نرى ان الواقع يؤكد على انه في حالة اسلام بعض ملوك بلاد ما وراء النهر نزولاً عند سفارة ورسول الخليفة الأموي، فإن ذلك لم يتحقق إلا لأن تلك البلاد بمدنها ومقدراته السياسية والاقتصادية كانت خاضعة وبشكل مباشر

لسيطرة وهيمنة العرب، منذ فتحها قتيبة ونشر فيها القوات العربية وأسكنها فيها.

ومهما يكن فإن ورود هاتين السفارتين في المصادر تأكيد على تنفيذ الخلفاء الأمويين أساليب متطورة من أساليب التأثير وتحقيق الأهداف العليا للدولة العربية.

ثانياً: - الوسائل الدينية والاجتماعية والثقافية.

استخدام العرب لأدوات ووسائل التأثير والتغيير الديني والاجتماعي وسط شعوب آسيا الوسطى، إنما كان مرحلة تالية لمرحلة المواجهات الحربية المباشرة وفرض الهيمنة على كافة الأقاليم والمدن، وذلك بعدما تحقق للعرب قبول وإقرار شرعي من قبل حكام وشعوب آسيا الوسطى بسيادتهم السياسية والالتزام معهم بعهود ومواثيق كثيرة، الى جانب فرض أتوات مالية كبيرة، فقد باشر العرب سلسلة إجراءات صارمة تجاه ترسيخ ما حملوه من معتقدات دينية ومسالك اجتماعية في بلاد آسيا الوسطى، من ذلك، بناء المساجد والقضاء على الديانات المنتشرة في الأقاليم، والدعوة والتبشير بالإسلام بطرق واضحة وصريحة.

I- بناء المساجد

حرص العرب المسلمون الفاتحون على صبغ بلاد آسيا الوسطى بالصبغة العربية الإسلامية، وعملوا على القضاء على الديانات المنتشرة في إقليم ما وراء النهر وإضعاف تأثيرها سياسياً واجتماعياً، وإحلال الإسلام شكلاً ومضموناً مكانها، وبرز في هذا

المضمار قتيبة بن مسلم بوصفه الرائد في هذا المجال حتى وصفه
الرشخي بقوله:

"وأظهر الإسلام بعد عناء كبير وغرسه في قلوبهم وشدد عليهم
بكافة الطرق... وألزمهم بأحكام الشريعة وبنى المساجد، وأزال آثار
الكفر ورسم المجوسية، وكان يبذل في ذلك جهداً عظيماً"
(123).

كما كان من أبرز بنود معاهدات الصلح التي عقدها العرب
مع ممالك آسيا الوسطى، ان يقوم هؤلاء بتسليم بيوت عبادة
الديانات المنتشرة فيها للعرب المسلمين، كما حدث في مدينة سمر
قند، إذ اشترط قتيبة على أهلها ان في صلحه بيوت الأصنام
والنيران (124)، وتنفيذاً لهذه السياسة تسلم المسلمون أصنام سمر
قند فسلبت حليتها وأحرقت، كما لاقت أصنام مدينة بيكند
نفس المصير (125)، وحول قتيبة بن مسلم بيت الأصنام في بخارى
الى مسجد (126) ولم يتوانى قتيبة عن قتل رجال دين هذه
الديانات عندما أبدوا مقاومتهم لهذه الإجراءات (127).

ورافقت عمليات "إزالة آثار الكفر ورسم المجوسية" على تعبير
الرشخي، عمليات بناء المساجد في معظم مدن الإقليم، فقد أتم
قتيبة بناء المسجد الجامع في بخارى داخل حصن بخارى في سنة
94هـ/712م، وأمر أهل بخارى بأن يجتمعوا هناك كل يوم
جمعة، فكان يأمر بمناد كل يوم جمعة يقول "بأن كل من يأتي
لصلاة الجمعة أعطيه درهمين" (128)، وبقي الناس يصلون في
المسجد الذي بناه قتيبة، فلما ازداد الإسلام، وكانت رغبة الناس
في الإسلام تزداد كل يوم، لم يتسع لهم ذلك المسجد، الى أن كان

زمن الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، حين صار أمير خراسان في زمن هارون الرشيد، فأمر ببناء مسجد جامع سنة 153هـ/770م (129)، وتم بناء مسجد في مدينة سمرقند (130) وبنت قبيلة بني سعد لنفسها مسجداً في بخارى (131)، وبني مقاتل بن سليمان القرشي فيها مسجداً سمي بمسجد القرشيين (132)، كما قام قتيبة بن مسلم ببناء مسجد في أفشنة (إحدى قرى بخارى) وكذلك فعل محمد بن واسع بأفشنة أيضاً (133) واختار قتيبة موقعاً بالقرب من بخارى وجعله مصلى للأعياد (134)، واستمرت عمليات بناء المساجد في عموم مدن وأقاليم آسيا الوسطى حتى وصفت "بلاد ما وراء النهر" سنة 110هـ/728م بأن أهلها "قد أسلموا وبنوا المساجد" (135).

II- الدعوة والتبشير:

لم تكن مهمة الدعوة والتبشير إلى الإسلام منفصلة عن بقية الوسائل والأساليب التي مارسها العرب في آسيا الوسطى، بل كانت هي الخطوة الأولى التي سعى إلى تحقيقها قادة العرب الفاتحون، ونلاحظ أن القيام بأعباء الدعوة قد تزامنت بشكل واضح وصريح مع الإجراءات التي أعلن عنها قادة الفتح في القضاء على مراكز العبادات الوثنية العائدة إلى الديانات المنتشرة بين شعوب آسيا الوسطى، كدور الأوثان والأصنام ومعابد النار الزردشتية، وقد شارك جميع العرب المسلمين في تلك الدعوة، إلا أنها كانت واضحة عند الخلفاء والولاة وعمال الأقاليم والمدن، ونجد أن من أبرز المواقف لدى خلفاء بني أمية هو موقف الوليد بن عبد الملك المتمثل بتجريد جيش عربي قوي مغمر بالطموح بقيادة قتيبة بن

مسلم الباهلي، وذلك لإخضاع أقاليم آسيا الوسطى ونشر الإسلام فيه عن طريق كافة الوسائل المشروعة، كما كان الأمر أكثر صراحة ووضوحاً لدى والي الوليد على العراق، الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي لم يأل جهداً تجاه حملة العرب على آسيا الوسطى إلا وقدم لها الدعم، العسكري والمالي وكذلك المعنوي، حيث كان حريصاً على أن يحقق العرب انتصارات كبيرة على شعوب آسيا الوسطى وصولاً إلى الاستيلاء على مدنها وأقاليمهم وممتلكاتهم، كمرحلة أساسية للتأثير عليها عقائدياً وسياسياً وثقافياً، وقد يرى ذلك جلياً في بعض الكتب الرسمية التي كان يبعثها الحجاج إلى قتيبة أثناء حملته المتواصلة في بلاد ما وراء النهر، ونقدم هنا نموذجين لتلك الكتب، فقد ورد قتيبة أثناء حركته إلى السغد وبعدما فتح إقليم خوارزم، رسالة من الحجاج، جاءت صيغتها عند ابن اعثم الكوفي على هذا النحو:

"أما بعد فإني لست بأئس إذ فتح الله علينا وعليك خوارزم، واغنمنا أموالها وخزائنها وغنائمها إن يفتح الله عليك وعلينا ما بعدها، وقد بلغني أنك تريد المسير إلى سمرقند، وأنا أنشدك إن غزوت بالمسلمين، وأنا أسأل الله أن يعز نصرك وإن يحسن عاقبتك، وأن يمدك باطلائكة المردفين، وأن يرعب قلوب أهل سمرقند، وأن يخالف بين كلمتهم، وأن يلقي بأسهم بينهم، وأن يورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم وأن يجعل دائرة السوء عليهم، إنه على كل شيء قدير والسلام عليك ورحمة الله وبركاته" (136).

كما وردت قتيبة رسالة من الحجاج بعدما أتم فتح مدينة سمرقند،

"أما بعد، يا قتيبة! فقد استقبل الله عز وجل من أمرك بما لم يستقبل به أحد قبلك من التمكّن في البلاد والظهور على الأعداء، فخذ ما آتاك الله بقوة وكن من الشاكرين، وأعلمك يا قتيبة بأنك إلى الشدة في دين الله عز وجل أحوج منك إلى اللين والوهن والضعف، فاشدد يديك أبا حفص بما قلّك الله تبارك وتعالى من أمر خراسان، واتبع السياسة التي رضي الله بها عن عبده الصالح ذي القرنين إذ قيل له لما بلغ مغرب الشمس "إذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً" (سورة 18/آية 86)... فتدبر أبا حفص ما كتبت إليك من موعظة العبد الصالح، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته" (137).

الأمر الذي يشير إلى لامركزية السلطة في دمشق، إذ أن ولاية المناطق هم المسؤولون المباشرين عن تحقيق أهداف الدولة التوسعية، وهو ما حدث فعلاً عندما تولى الحجاج إمارة العراق، فهو الذي كان يعين عماله في الشرق، والذي يجرد الجيوش لخوض حروب ومعارك، كما حصل وعين حملة قتيبة على بلاد ما وراء النهر، ومحمد بن القاسم على ثغر الهند.

ولذلك فقد تحمل ولاية وعمال الأقاليم والمدن في بلاد آسيا الوسطى الأعباء الكبرى في الدعوة إلى الإسلام، فكانوا مكلفين برعاية الدعوة وتسهيل مهماتهم وتوفير الأجواء المناسبة بين الأهالي لتأدية واجباتهم بكل يسر وسهولة، كما تكلفوا بمراقبة معظم المناطق المفتوحة وسكانها خوفاً من انتفاضاتهم وردتهم عن الدين أو أن يتعرض المسلمون للخطر من جانبهم، بالإضافة إلى أن معظم الولاة كانوا يؤدون واجبات الدعوة بأنفسهم، كما

فعل الجنيـد بن عبد الرحمن مع خاقان الترك، ونصر بن سيار مع دهاقنة بخارى، في حين، ووفقاً لرواية النرشخي، نجد أن طغشادة ملكة بخارى قد أسلمت على يد قتيبة بن مسلم بعد دعوته إياها إلى الإسلام (138)، كما نجد أشرس بن عبد الله والي بلاد ما وراء النهر أيام هشام بن عبد الملك قد نظم لجنة خاصة بالدعوة إلى الإسلام وسط أهالي ما وراء النهر (139).

جـ- العرب المتوطنون.

من الوسائل ذات الجدوى والفعالية الكبرى في إحداث التأثير والتغيير وسط شعوب آسيا الوسطى، أن العرب جميعهم كانوا مسؤولون عن تأدية هذا الواجب، فكانوا بأعداد كبيرة، لا سيما القبائل العربية التي انتخبت للانخراط بالجيش الأموي الذي فتح آسيا الوسطى، فإلى جانب فرضية الدعوة ابتغاء مرضاة الله، فإن الدولة نظمت أعمالهم غاية التنظيم، وجعلت دعوتهم جماعية وفردية، ومنحتهم صلاحيات واسعة لتحقيق سياسة التطهير التي تنشدها الدولة الأموية، ولا أدل على تلك الامتيازات من توزيع أربع أخماس الغنائم عليهم، وسعي القيادة العربية إلى جعلهم أسياد البلاد من خلال توثيق ذلك بعهود ومصالحات ان قبلت، أو فرض السيادة بوسائل القوة المباشرة.

ولا نستطيع في هذه الدراسة حصر التجمعات العربية بشكل تفصيلي، وذلك بسبب إحجام المصادر العربية عن تفصيل ذلك، ولكن بمقدورنا رسم صورة واضحة تعكس قدرة العرب الكبيرة على استغلال وجودهم وتجمعاتهم القبلية في المدن المختلفة في آسيا الوسطى، وذلك من خلال ما حدث في مدينة بخارى، وسياسة

العرب في استخدام كافة السبل والوسائل لإحداث تغييرات شاملة وملموسة في حياة الناس، وهي المدينة التي واجهت مؤثرات العرب بكل قوة وعنقوان، وأبت في أكثر من مناسبة قبول العروض حتى وإن قبلت مدينة بخارى بمعاهدة المسلمين ودفع الجزية لهم، وقبولهم الإسلام، إلى أنهم كانوا يرتدون إلى عقيدتهم القديمة عقب رحيل العرب عنهم في كل مرة (140).

وبناء على تأكيدات النرشخي، فإن قتيبة بن مسلم الباهلي حمل أهل بخارى على اعتناق الإسلام ثلاث مرات، إلا أنهم يعودوا ويرتدوا عن الإسلام، لكن الأمر الأصعب الذي واجهه العرب المسلمين مع سكان بخارى، أنهم كانوا يقرون ويقبلون بالإسلام في الظاهر إلا أنهم يعبدون الأصنام في الباطن (141) ووفقاً لذلك، فإن الدعوة للإسلام في آسيا الوسطى، وبخارى كنموذج لمدن آسيا الوسطى، واجهت صعوبات كثيرة، إلا أن أخطر معضلتين تعامل معها العرب، هما، قبولهم الإسلام ديناً، ثم إعلانهم الارتداد عنه، وتظاهروا بهم بالإسلام وأسرار الكفر، وذلك رغم تواجد القبائل العربية بين ظهرانيهم، وعندما أدرك قتيبة خطورة هذه الممارسات، لم يجد بداً من استخدام وسائل صارمة جداً، إذ أمر سكان بخارى بأن يعطوا نصف بيوتهم للعرب ليتجمعوا معهم ويساكنوهم، ويطلعوا على أحوالهم، وبهذا صار الشريك العربي الجديد عيناً عليهم، يراقب سلوك البخاريين الذين دخلوا في الإسلام ويفقههم أمر الإسلام ثم يقوم العرب بإخبار ولي الأمر عما يرتد من جديد عن الإسلام، وبذلك اطلع العرب بشكل مباشر على أحوال المسلمين البخاريين فظلوا مسلمين

بالضرورة، وألزمهم قتيبة بأحكام الإسلام وعاقب المقصرين في ذلك وقد بذل في سبيل خلق قناعات إسلامية جديدة لدى سكان بخارى جهداً عظيماً (142).

وكذلك أدت القبائل العربية دوراً مميزاً من خلال استخدام وسائل وآليات مختلفة لحمل سكان بخارى على الإقرار الكامل بالإسلام، فقد كانت هذه الجالية العربية تقوم بتشكيل مجموعات على شكل لجان، تعلم المعتنقين الجدد للإسلام أحكام الدين وتحفظهم القرآن الكريم، بالإضافة إلى أنهم يعملون على حمايتهم من أي اعتداءات خارجية، وطبق قتيبة أساليب جذب وإغراء غاية في التأثير والأهمية، فقد أمر أكثر من مرة، بأن يناد مناد يوم الجمعة ويقول: بأن كل من يأتي لصلاة الجمعة أعطيه درهمين (143) كما رصدت جوائز مالية كبيرة لمن يظهر تمسكه بالإسلام، فكان كل من يصلي من سكان بخارى بمسجد قتيبة الذي بني 94هـ/712م يصيبه درهمان، وكذلك بقية المساجد الأخرى (144). وحتى يتيسر فهم الإسلام وتعاليمه لدى سكان مدينة بخارى، وجه العرب عنايتهم نحو الاهتمام بلغة السكان المحليين، وقرأوا القرآن بالفارسية (ترجمة) لا بالعربية (145).

ورغم كل تلك الجهود التي بذلها العرب للوصول إلى استقرار سلمي للإسلام في مدينة بخارى إلا أن المسلمين لبثوا سنين طويلة لا يجرؤون على الظهور بغير أسلحتهم سواء في المسجد أو الأماكن العامة، ولم يمنع حظر حمل السلاح على سكان بخارى، حتى يدخلوا في الإسلام، من تكرار وقوع الصدام العنيف بين الفريقين مدة طويلة، ويؤكد فامبري أن أعيان بخارى عرفوا بمقاومتهم

الشديدة للعقيدة الجديدة، وحين دعوا الى المسجد ردوا على هذه الدعوة بسيل منهمر من الحجارة أثار من ثائرة العرب، حتى سقطوا عليهم ونهبوا قصورهم وأعملوا فيها التخريب والدمار، واستخدمت انقاض هذه الأبنية فيما بعد في بناء المساجد (146).

ويلاحظ أن تشدد العرب إزاء أهالي بخارى بسبب تعنتهم ومقاومتهم لمؤثرات العرب المسلمين لم يجد نفعاً ولم يحقق لهم مبتغاهم في توطيد أركان الدين، وحين تحققوا من أن أهدافهم لم تنجح برغم كل الإجراءات الصارمة، عمدوا الى انتزاع مدينة بخارى من أيدي أهلها وقسموها بين العرب، لتصبح ملك لهم (147).

د - التزاوج.

عند دراستنا للمصادر العربية فإننا نكاد لا نجد رواية من الروايات تشير الى ان العرب مارسوا طقوس الزواج والمصاهرة مع سكان آسيا الوسطى، الأمر الذي يجعلنا نفتقد أخبار تلك الفترة بخصوص ذلك، وثمة رواية وحيدة جاءت عند ابن اعثم الكوفي تشير الى ان عثمان بن مسعود التميمي كان متزوجاً الى الترك (148)، وهو أحد رجال قتيبة بن مسلم، وعلى العموم، فإن العرب وبعدها استوطنوا مدن آسيا الوسطى، أدركوا ان لا عودة لهم الى ديارهم التي جاءوا منها، فحصل مع مرور الوقت تعايش بينهم وبين سكان البلاد لا سيما بعدما راحوا يعتنقون الإسلام بصورة تدريجية، وبناء على ذلك، فمن المؤكد أن ظاهرة التزاوج

بينهم وبين شعوب الأتراك أخذت بطريقها بين الناس، وإن كنا لا نعرف حجم ذلك لعدم إفصاح المصادر العربية عن انتشار هذه الظاهرة فيما يخص آسيا الوسطى.

من جهة أخرى، وحينما نستعرض حروب ومعارك قتيبة بن مسلم في آسيا الوسطى والتي استغرقت زهاء عشر سنوات (86هـ-96هـ/705م-714م)، واحتلاله وفتح طعظم مدائن الإقليم، كبخارى وسمرقند وبيكند وبادغيس وكش وخوارزم وكاشغر وغيرها من المدن، فإن الباحث لا شك سيدرك أن ما حققه ذلك الفاتح العربي من انتصارات متلاحقة قد أوقع مئات الأسرى الأتراك (من الجنسين) بيد العرب المسلمين، وخاصة سبائا الحروب، حيث درجت الدولة العربية على تقسيم غنائم الحرب وسبائاها بينها وبين الجنود المقاتلين، بينما يكون نصيب الجند أربع أخماس الغنائم (السبي) وكون هذه السبائا كانت من حق الجنود، فإنها كانت تعيش معهم، ولا نشك في أن هذه السبائا من النساء كانت عرضة لتلقي المؤثرات العربية الإسلامية خاصة وأن قسماً كبيراً من العرب استوطنوا آسيا الوسطى كما أشرت سابقاً.

هـ العادات والتقاليد.

كان بعض العرب يتمتعوا باحترام كبير لدى أهالي ما وراء النهر وتركستان، منهم على سبيل المثال لا الحصر، ثابت بن قتيبة الخزاعي الذي كان محبباً بين الأتراك، يعظمونه ويثقون به، فكان الرجل منهم إذا أعطى عهداً يريد الوفاء به حلف بحياة

ثابت فلا يغدر (149) وكان ثابت -على رأي بارتولد- يتشبه بالأمرء الوطنيين، فأحاط نفسه بعدد من الشاكرية (150).
كما كان لاستيطان العرب في الإقليم، وحرص الدولة على محاربة كل ما لا يتفق والثقافة العربية الإسلامية أكبر الأثر في شيوع العادات والتقاليد العربية بين السكان، وهذا مؤكد رغم عدم إفصاح المصادر عنه بصورة مرضية، الأمر الذي دعى المؤرخ الروسي الشهير بارتولد يذهب الى القول: على الرغم من أن الأتراك لم يستسلموا لأسلحة المسلمين، فإن تأثير المدينة الغربية (العربية) عليهم قوي بعد دخول المسلمين في آسيا الوسطى (151).

و- المؤثرات الثقافية.

لم يرغب عن بال العرب الفاتحون إشاعة مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في عموم إقليم آسيا الوسطى، وقد سعوا الى تحقيق تلك المظاهر من خلال تطبيق وسائل وأساليب متنوعة وهادفة، كان من أبرزها، كما سبق الإشارة الى ذلك، بناء المساجد، فإلى جانب دورها الديني والعقائدي، فإنها كانت مركز بث ثقافي وسط شعوب الأتراك، من خلال تعليمهم وتفقيهم أسس الدين وشرعية الإسلام، وحرصاً من الدولة العربية الإسلامية على تحصيل أكبر قدر ممكن من سكان المنطقة الذين يفهمون أصول الدين ومعرفة اللغة العربية، فإنها جعلت من المساجد مركز توعية وتثقيف وتعليم وإرشاد، لذلك فإن نشاط التأثير العربي في مدن وأقاليم آسيا الوسطى شهد حركة كبيرة جداً اتجهت نحو بناء المساجد، ومع أننا لا نملك نصوصاً واضحة

تحدث عن دور المسجد التعليمي فيما يخص إقليم ما وراء النهر، إلا أننا واعتماداً على الدور التقليدي الفعال للمسجد في تطوير الحركة العلمية الإسلامية نستطيع تأكيد قيام مساجد ما وراء النهر بلعب دور مهم في تدريس وتعليم الثقافة العربية الإسلامية، إذ يمكننا الاستدلال من خلال إصرار قتيبة بن مسلم الباهلي على حضور أهل بخارى إلى المسجد (152) على أنه كان يحاول استدراج البخاريين إلى حلقات الدرس العلمية لتعليمهم الثقافة الجديدة.

وإذا كان المسجد هو مكان تعلم كبار السن فإن الصغار كانوا يتلقون علومهم الدينية الأولى في الكتاتيب، والتي عادة ما تلحق بالمساجد، وقد وردت إشارة واحدة من أن الضحاك بن مزاحم أقام في مدينة بخارى وكان يعلم الصبيان القرآن الكريم (153)، وكان كتابه مزدحمًا بالصبيان إذ وصل عددهم إلى ما يقارب ثلاثة آلاف صبي (154)، ونعتقد بأن ما شهدته بخارى من اهتمام عربي تجاه إنفاذ ثقافة العرب المسلمين ولغتهم إلى وسط البخاريين فإن ذلك ينطبق تماماً على بقية مدن آسيا الوسطى، ولذلك أصاب شكري فيصل عندما ذهب بقوله إلى أن قتيبة استطاع أن يوجه بخارى وسمرقند وخوارزم لتكون مراكز للثقافة العربية ومنابت لغرس الإسلام في آسيا الوسطى (155).

ومن الوسائل ذات التأثير الكبير على سكان آسيا الوسطى أن قتيبة بن مسلم أراد أن يوجه اهتمامه نحو تقريب الإسلام إلى السكان بطريقة أقرب إلى مفاهيمهم ولغتهم، ولذلك لم يجد حرجاً من إعلان السماح لهم بقراءة القرآن الكريم باللغة الفارسية، ونحن

نعلم ان المئات من الفرس المسلمين هم يخدمون فعلياً في جيش قتيبة، ولا نشك في أنهم قاموا بترجمة القرآن الى اللغة الفارسية تسهيلاً للفرس ومن ثم للأتراك في فهم الإسلام الجديد.

ويعزز هذا التوجه رواية النرشخي التي قال فيها:

"كان قتيبة يأمر بمناد (في بخارى) كل يوم جمعة يقول: "بأن كل من يأتي لصلاة الجمعة أعطيه درهمين، وكان أهل بخارى في أول الإسلام يقرأون القرآن بالفارسية ولم يكونوا يستطيعون تعلم العربية، وحينما كان يحين وقت الركوع كان يقف وراءهم رجل يصيح فيهم (بكنيتا نكيت) وحينما يسجدون يصيح فيهم (نكوينا نكويني) (156).

وفيما يتعلق بمؤثرات العرب اللغوية بين سكان آسيا الوسطى، نجد رواية للبيروني تضع لنا وسيلة قوية وفاعلة في مضمار التأثير اللغوي، فقد قام قتيبة بن مسلم الباهلي بوضع خطة محكمة تهدف للقضاء على خطوط اللغات المحلية في عموم أقاليم بلاد ما وراء النهر، فمثلاً، يقول البيروني عن سياسة قتيبة مع أهل السغد (سمرقند): "أهلك قتيبة كتبتهم وقتل هرابذتهم وأحرق كتبهم وصحفهم" (157). وفي إقليم خوارزم فقد "أباد قتيبة من يحسن الخط الخوارزمي ويعلم أخبارهم ويدرس ما كان عندهم ومزقهم كل ممزق (158) وليس من ريب، من أن باقي مناطق الأقاليم عوملت نفس المعاملة، فحوربت اللغات المحلية وجرى التركيز على تعلم العربية (159).

تلك الممارسات التي مارسها العرب وصولاً الى إحلال اللغة العربية محل اللغات المحلية في آسيا الوسطى كانت ناجعة الى درجة

كبيرة جداً، وإن كانت تعكس ظاهرة القسوة والعنف إلا أنها برغم ذلك شقت طريقها نحو التأثير وجعل العربية هي لغة السياسة والثقافة والعلوم، وقلبت لغات ولهجات شعوب آسيا الوسطى، سواء تلك التي ترتبط بالتركية القديمة او باللغة الفارسية، لتلبس ثوب العربية حروفاً ومفردات، وقد أعطانا المؤرخان الأوزبكيان بوريوي أحمدوف ومنوروف زاهدوف صورة مضيئة تعكس مدى رغبة واهتمام شعوب آسيا الوسطى باللغة العربية التي نقلها لهم قتيبة بن مسلم والفاتحون العرب.

"أما اللغة العربية التي أصبحت منذ مطلع القرن الثامن الميلادي لغة الدولة ولغة العلوم لدى سكان آسيا الوسطى أيضاً، فقد صارت بالتالي وسيلة التفاهم والتعامل في الميادين الاقتصادية والسياسية والثقافية بين جميع الشعوب، فبواسطة اللغة العربية بالتحديد، استطاعت شعوب آسيا الوسطى الاطلاع على مؤلفات علماء اليونان القدماء، كما ان الإبداعات الجلييلة لأجدادنا، أحمد الفرغاني، والخوارزمي، وابن سينا، والبيروني، والفارابي، وغيرهم تمكنت من الظهور الى حيز الوجود بفضل اللغة العربية (161).

ر- المؤثرات الاقتصادية.

لم يكتف العرب الفاتحون لآسيا الوسطى من تحقيق أهدافهم السياسية والثقافية ونشر الدعوة فحسب، بل كانوا أكثر حرصاً على بلوغ التأثير الاقتصادي في المنطقة، وذلك من خلال السيطرة على المسالك والطرق التجارية والأسواق الهامة،

ولذلك استطاعت الدولة العربية الإسلامية من إحكام قبضتها على الطريق التجاري البحري القادم من الشرق الأقصى الى الجزيرة العربية والعراق عبر الخليج العربي، في حين ظلت طريق الحرير البري خارج هيمنة العرب المباشرة، ولهذا السبب راحت الدولة العربية تتطلع إلى السيطرة على هذا الطريق التجاري الحيوي الذي يربط الشرق مع الغرب.

ولقد تميز سكان آسيا الوسطى بأعمالهم التجارية، كونهم يقعون في منطقة متوسطة بين الصين من جهة والعالم العربي والإسلامي وأوروبا من جهة ثانية، وعليه فإن تجارتهم مع الصين كانت قديمة ومتطورة ومزدهرة، وتجمع بها مراكز تجارية نشطة لا سيما تجارة الحرير والسجاد التي ارتبطت بالصين، ومن هذه المراكز، مدينة سمرقند، وبيكند وكش وخجندة وجند وغيرها، بيد أن مدينة سمرقند كانت من أكثر تلك المراكز ازدهاراً وتطوراً بتجارتها مع الصين، فكانت على الدوام ترسل بعثات تجارية كبيرة الى بلاد الصين (161) وبخارى تميزت هي الأخرى بعلاقاتها الجارية الواسعة مع الصين من خلال استيراد الحرير والسجاد، ومنها يعاد تصدير البضائع الصينية الى مختلف أنحاء العالم الإسلامي والأوروبي (162)، بينما كان معظم سكان مدينة بيكند يعملون بالتجارة مع الصين (163) ويوم فتحها العرب المسلمون كان معظم رجالها في تجارات مع الصين (164) وقد تمكنت فئات كبيرة من أولئك التجار من جمع ثروات مالية هائلة كعوائد تجارية مع الصين والأقطار الأخرى.

وعندما ندرك هيمنة العرب على غالبية مدن آسيا الوسطى وعلى رأسها مدينة سمرقند وبخارى وبيكند ندرك معها الشأن العظيم الذي بلغه العرب في تأثيرهم على تجارة المنطقة والتحكم بها وبأسواقها، وبأنها فتحت الآفاق أمام العرب للاتصال تجارياً مع بلاد الصين، فراح المسلمون بعد أن وطدوا حكمهم في آسيا الوسطى يفيدون من طرق التجارة، وقد تحدثت المصادر الصينية ان قوافل المسلمين التجارية كانت في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي تصل الى الصين، ولكي يجني العرب عوائد مالية كبيرة فإنهم عملوا على تنشيط التجارة مع الصين من خلال تقديم تسهيلات كبير للتجارة، وتحقيقاً لهذا الغرض فقد سعت الدولة العربية الى بناء الخانات على امتداد الطرق والممرات الواصلة الى الصين لحماية القوافل التجارية، ويذكر البلاذري، ان عمر بن عبد العزيز امر ببناء الخانات في بلاد ما وراء النهر (165)، وكذلك وجدنا عند الطبري مدائح دهاقنة المنطقة لأسد بن عبد الله القسري حيث قالوا: " بنيت الأيوانات في المفاوز فيجيء الجأي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجد عيباً (166)، وهذا ساعد بشكل كبير على تردد القوافل التجارية بين المناطق التي يسيطر عليها العرب المسلمون والصين، ولا ننسى هنا، أن التجارة العربية مع الصين لم تقتصر على الجانب التجاري والاقتصادي، بل استثمروا هذه العلاقات الى الدعوة الى الإسلام ونشره بين الناس (167)، إذ أنه بعد توقف العمليات الحربية في آسيا الوسطى بدأ دور التجار المسلمين يأخذ أبعاداً تأثيرية أكبر، حيث تغلغلوا في الوسط الاجتماعي سلمياً، غير أننا لا نستطيع تقييم عملهم تماماً في

الإقليم ويذكر في هذا المجال ان الدولة الأموية كانت تعامل تجار الإقليم معاملة خاصة فعندما أيد تجار الصغد "وكانوا أربعمائة رجل وكان معهم مال عظيم قدموا به من الصين (168)، أيدوا الثوار ضد الحكم العربي سنة 104هـ/722م وظفر بهم سعيد الحرشي والي خراسان أمر بقتل الثوار بعد أن "عزل التجار عنهم" (169)، ولم يقتلهم، وقبل نصر بن سيار شروط التجار الصغد الملتجئين الى الترك وسمح لهم بالعودة الى بلادهم ومن أهمها: "ألا يعاقب المرتد منهم عن الإسلام، وألا يلزموا برد ديونهم، وأن لا يرجعوا الأسرى من المسلمين إلا بشهادة شاهدين أمام القاضي (170).

ويتبين من ذلك، أن الدولة الأموية كانت أحرص ما تكون على تشديد قبضتها على طرق التجارة البحرية والبرية، إضافة الى أنهم أصبحوا رعاة على توفير الأمن والنظام وإقامة المنشآت التجارية من أسواق وطرق وخانات، بل وإنها كانت في بعض الظروف تتغاضى أحياناً عن بعض تصرفات تجار آسيا الوسطى رغبة في استمالتهم الى الإسلام، وعليه فقد لعبت التجارة العربية في آسيا الوسطى مع الصين دوراً مميزاً في إحداث التأثير الديني والثقافي وسط السكان.

خاتمة الدراسة:

بعدما بحثنا في هيمنة العرب على شعوب آسيا الوسطى، وتعرفنا على طبيعة آليات وأساليب التأثير الحضاري على تلك الشعوب، وانعكاس تلك المؤثرات بشكل ملموس ومستمر على عقائد وثقافة وحياة الأتراك الاجتماعية، نخلص الى مجموعة من المحصلات:

أولاً: - يعتقد البعض أن العرب إنما أوصلوا ديانتهم وثقافتهم الى الشعوب الأخرى، ومنها شعوب آسيا الوسطى، عبر الوسائل السلمية البحتة، وهذا يتنافى مع السياسة العسكرية وخططها الاستراتيجية بعيدة المدى، والتي التزم العرب في تنفيذها مرحلة تلو أخرى، إذ أن البعد العسكري وما حمله من تجريدات حربية وفتوح وغزو هما السبب وراء تحقيق العرب لهدفين، الهيمنة على المدن والأقاليم وربط مصيرها بيد القوة العربية الفاتحة مباشرة، وأعقبها نشاط مكثف وممنهج لتغيير معتقدات السكان.

ثانياً: - لقد أنجز القائد الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي ما بين عام (87هـ/705م) وحتى عام (96هـ/714م) ما لم تستطع غيره من القيادات من تحقيقه، فقد قاد في بحر تسع سنوات سلسلة من الحروب ضد شعوب آسيا الوسطى وحكوماتها، تجاوزت ثلاث عشرة حملة عسكرية، نجح خلالها من بسط هيمنة وسيطرة الحكم العربي الإسلامي على معظم أقاليم ومدن آسيا الوسطى، وندرك عند استعراضنا لتلك المعارك والفتوح كم كانت القيادة العربية الأموية حريصة على اختراق آسيا الوسطى وإحداث متغيرات سياسية واجتماعية وثقافية فيها.

ثالثاً:- أبداع العرب في المعترك السياسي، فقد أظهروا كفاءة وبراعة فائقة في هذا المضمار لا يقل عن براعتهم في ساحة المعركة، ووجدناهم يغتنمون جميع الفرص والظروف للوصول سلمياً الى السيطرة على آسيا الوسطى، ولذلك نفذوا مجموعة من الإجراءات السياسية والتي يظهر فيها تخطيطاً ومنهجية قوية ومؤثرة، إذ سارعوا الى توقيع اتفاقيات صلح ومهادنة، كما ذهبوا الى إقرار الحكام المحليين على ممالكهم، بالإضافة الى تعيين حكام وولاة عرب على مختلف مدن آسيا الوسطى، وعملوا على توطين القبائل العربية فيها، وأرسلوا السفارات الداعية الى طلب المهادنة والمصالحة مع شعوب الأتراك في آسيا الوسطى.

رابعاً:- لا حظنا حرص الدولة العربية الإسلامية الكبير على إشادة وبناء المساجد في غالبية مدن آسيا الوسطى، كمدينة بخارى وسمرقند وبيكند وخوارزم وغيرها، وتبين أن العرب سعوا الى إنشاء تلك المراكز العبادية، لإظهار هيمنتهم كونها تشكل أبرز رموز سيادتهم على المنطقة، وكذلك فإنها استخدمت اسخداماً منظماً في بث المعتقدات الدينية الجديدة وسط سكان آسيا الوسطى في مناطقها المختلفة، كما ان العرب أظهروا تشدداً واضحاً تجاه معابد الأتراك الوثنية، واشترطوا لقبول الصلح تسليمها إليهم ليتصرفوا بها بحرية، كما أصبحت تلك المساجد أماكن لعقد المظاهرات والمظاهرات الدينية بين العرب المسلمين والأتراك.

خامساً:- أما الجانب الثقافي، فقد كان للعرب التأثير العميق على شعوب آسيا الوسطى، بقي راسخاً عبر قرون طويلة وحتى أيامنا

هذه، وذلك من خلال استخدام العرب الوسائل وآليات وجهت لبلوغ مرحلة التغيير، فقد وجه قتيبة اهتمامه نحو تقريب الناس الى الإسلام عن طريق اعتماد اللغة (أو اللغات المحلية) كلغات يمكن تعلم الدين من خلالها، وفي مراحل أخرى، راح ينفذ سياسة أكثر تشدداً إذ ارغم السكان على التخلي عن لغاتهم المحلية ودعاهم الى تعلم اللغة العربية حيث أصبحت هذه اللغة لغة التفاهم والتعامل الاقتصادي والثقافي بين شعوب المنطقة.

سادساً: - أبدت القيادة العربية اهتماماً بالغ التأثير في الجانب الاقتصادي وعلاقته المباشرة في إحداث التأثير والتغيير، لذلك حرصوا أشد الحرص على ربط مصير مدن وممالك آسيا الوسطى بما تقدمه من أموال وضرائب لدولة العرب المسلمين، وحرصوا على السيطرة على الطرق والممالك التجارية التي تربط آسيا الوسطى بالصين من جهة ومع العالم العربي والإسلامي والأوروبي من جهة ثانية كما أنهم احتكروا السلع التجارية المؤدية الى الصين لا سيما طريق الحرير البري، والذي تعد مدينة سمرقند أهم مراكزه التجارية.

سابعاً: - لولا تطبيق العرب لوسائل وآليات مختلفة وسط شعوب آسيا الوسطى، وإن كانت متشددة في بعض الأحيان، لما حققت مؤثرات شاملة وراسخة ومستمرة على حياة الترك في آسيا الوسطى، والتي حافظت على ديمومتها الى وقتنا الحاضر، وإن شعوب الجمهوريات الإسلامية (قرقستان، أوزبكستان، تركمانستان، قرقيزستان، طاجكستان) هم نتاج ذلك التأثير القديم.

الهوامش:

1- Arnold, Thomas, The Preaching of Islam, A history of the Propagation of the Muslim faith, Lahore, Pakistan, 1979, P216.

2- Ibid, P. 216

3- Ibid, P. 217

4- Ibid, P. 217

5- بارتولد، ف، ف، تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت، 1981م، ص300.

6- بارتولد، نفس المرجع، ص303.

7- بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة احمد السعيد، القاهرة 1985م، ص39، 7.

8- فامبري، أرمنيوس، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة د. أحمد يحيى الخشاب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة (د.ت)، ص66.

9- فامبري، نفس المرجع- ص61.

10- فامبري، نفس المرجع- ص67.

11- فامبري، نفس المرجع- ص67.

12- فامبري، نفس المرجع- ص68.

13- فامبري، نفس المرجع- ص68.

14- فامبري، نفس المرجع- ص69.

15- أحمدوف بور ييوي وآخرون، العرب والاسلام في اوزبكستان، تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم، مراجعة نعمت الله ابراهيموف، العضو المراسل لأكاديمية العلوم الأوزبكية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت، 1996م، ص88،89.

16- أحمدوف، نفس المرجع، ص77.

17- أحمدوف، نفس المرجع، ص83.

18- أحمدوف، نفس المرجع، ص89.

19- بوزورث وآخرون، تراث الاسلام، ترجمة حسين مؤنس، الطبعة الثانية، عالم المعرفة، الكويت، رقم 233، 1998، ج1، ص65.

20- محمد بن جرير الطبري (ت310هـ/868م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، بيروت، 1964م، ج6، ص500، محمد بن احمد بن أعثم الكوفي (ت314هـ/926م)، كتاب الفتوح، الطبعة الأولى، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد-الركن- الهند، 1394هـ/1974م، ج7، ص251.

21- ابو الحسن احمد البلاذري (ت279هـ/892م) فتوح البلدان، الطبعة الاولى، القاهرة 1319هـ/1901م، ص416.

22- البلاذري، نفس المصدر، ص416-417.

23- البلاذري، نفس المصدر، ص417.

24- البلاذري، نفس المصدر، ص417-418.

25- البلاذري، نفس المصدر، ص419-420.

- 26- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 3 ص 46.
- 27- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 426.
- 28- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 429.
- 29- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 436.
- 30- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 439، 442، 443، 444.
- 31- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 445.
- 32- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 447.
- 33- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 454.
- 34- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 455.
- 35- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 455.
- 36- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 461.
- 37- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 469.
- 38- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 472.
- 39- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 483.
- 40- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج 7 ص 251.
- 41- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج 4 ص 181.
- 42- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 480.
- 43- النرشخي، المصدر السابق، ص 78.
- 44- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 480.
- 45- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 480.
- 46- الاصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ / 966م)،
الأغاني، درا الكتب المصرية، القاهرة، (د.ت). ج 23 ص 32.

- 47- ابن الأثير (ت630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م، ج4 ص204، 178.
- 48- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج4 ص165.
- 49- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج4 ص159.
- 50- الطبري، المصدر السابق، ج6 ص483.
- 51- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج4 ص197.
- 52- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج4 ص180.
- 53- الطبري، المصدر السابق، ج6 ص425.
- 54- الطبري، المصدر السابق، ج6 ص445، ابن أعثم الكوفي، ج7 ص423.
- 55- الطبري، المصدر السابق، ج6 ص246.
- 56- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج7 ص244.
- 57- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج7 ص246.
- 58- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج7 ص245.
- 59- ابن أعثم الكوفي، ج7 ص224.
- 60- ابن أعثم الكوفي، ج7 ص245.
- 61- البلاذري، المصدر السابق، ص427.
- 62- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج7 ص224.
- 63- ابن الأثير، المصدر السابق، ج4 ص107.
- 64- احمد بن عبد الوهاب النويري (ت733هـ/1332م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م، ج21 ص380.
- 65- الطبري، المصدر السابق، ج6 ص427، 428.

- 66- البلاذري، المصدر السابق، ص428.
- 67- البلاذري، ص427.
- 68- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج 7 ص243.
- 69- ابن أعثم الكوفي المصدر السابق، ج 7 ص245
- 70- ابن الأثير ج 4 ص185 / النويري، ج 21 ص380.
- 71- ابن أعثم الكوفي المصدر السابق، ج 7 ص245، 246.
- 72- ابن أعثم الكوفي، ج 7 ص245.
- 73- ابن أعثم الكوفي، ج 7 ص245.
- 74- البلاذري، ص342.
- 75- البلاذري، ص427.
- 76- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص424.
- 77- البلاذري، المصدر السابق، ص426.
- 78- البلاذري، ص426.
- 79- ابن أعثم الكوفي، ج 7 ص232، الطبري، ج 6 ص454.
- 80- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص455.
- 81- الطبري، ج 6 ص459.
- 82- الطبري، ج480.
- 83- النرشخي، المصدر السابق، ص80.
- 84- النرشخي، ص70.
- 85- الطبري، ج 6 ص431.
- 86- الطبري، ج 6 ص461.
- 87- ابن الأثير المصدر السابق، ج 4 ص128.
- 88- النرشخي، ص89.

- 89- البلاذري، 434.
- 90- البلاذري، ص434.
- 91- أحسان الثامري، بخاري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك 1997، ص51.
- 92- ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ)، مناقب الترك، ضمن رسائل الجاحظ، دار القلم، بيروت (د.ت)، ص513-516.
- 93- النرشخي، المصدر السابق، ص89.
- 94- الطبري، المصدر السابق، ج6 ص480.
- 95- احمدوف، المرجع السابق، ص83.
- 96- فامبري، المرجع السابق، ص67.
- 97- الطبري، ج6 ص424-425، البلاذري، ص426.
- 98- الطبري، ج6 ص425، 428، 445، 469.
- 99- ابن أعثم الكوفي، ج7 ص245، 246.
- 100- ابن أعثم الكوفي، ج7 ص245.
- 101- احمدوف، المرجع السابق، ص80.
- 102- احمدوف، نفس المرجع، ص80.
- 103- البلاذري، المصدر السابق، 437.
- 104- اليعقوبي، البلدان، ص294.
- 105- ابن الفقيه، البلدان، ص615.
- 106- الطبري، ج6 ص431.
- 107- النرشخي، ص80، 50.
- 108- فامبري، المرجع السابق، ص69.

- 109- الطبري، المصدر السابق، ج 6 ص 492.
- 110- اليعقوبي، البلدان، 212.
- 111- ابن حوقل، ص 483.
- 112- الأصبخري، 87.
- 113- البلاذري، ص 427.
- 114- ابن الأثير، ج 4 ص 135.
- 115- ابن أعمش الكوفي، ج 4 ص 311.
- 116- الأصبخري، ص 181.
- 117- البلاذري، ص 428.
- 118- ابن الأثير، ج 4 ص 177.
- 119- النرشخي، المصدر السابق، ص 73.
- 120- النرشخي، ص 74.
- 121- عبيد البادي الطاهر، فرسان الخلافة، مصر، 1994م، ص 82.
- 122- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1995م، ج 2 ص 24. مادة تركستان.
- 123- النرشخي، المصدر السابق، ص 74.
- 124- النرشخي، ص 73.
- 125- الطبري، ج 6 ص 432.
- 126- البلاذري، ص 597.
- 127- البيروني- الآثار الباقية، 48.
- 128- النرشخي، ص 74.
- 129- النرشخي، ص 74، 75.

- 130- ابن أعثم الكوفي، ج 7 ص 242، 243.
- 131- النرشخي، ص 73.
- 132- النرشخي، ص 85.
- 133- النرشخي، ص 32.
- 134- النرشخي، ص 78.
- 135- ابن الاثين، ج 4 ص 202.
- 136- ابن أعثم الكوفي، ج 7 ص 239.
- 137- ابن أعثم الكوفي، ج 7 ص 247.
- 138- النرشخي، ص 24.
- 139- بارتولد، المراجع السابق، ص 309.
- 140- فامبري، المراجع السابق، ص 66.
- 141- النرشخي، المصدر السابق، ص 73.
- 142- النرشخي، ص 73، فامبري، ص 67.
- 143- النرشخي، ص 74.
- 144- فامبري، ص 68.
- 145- النرشخي، ص 74.
- 146- فامبري، ص 68.
- 147- فامبري، ص 69.
- 148- ابن أعثم الكوفي، المصدر السابق، ج 7 ص 215.
- 149- الطبري، ج 6 ص 403.
- 150- بارتولد، المراجع السابق، ص 301.
- 151- بارتولد، تاريخ الترك، ص 39.
- 152- النرشخي، ص 74.

- 153- الناي، المرجع السابق، ص146.
- 154- الثامري، ص327.
- 155- شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامية في القرن الأول الهجري، دار العم للملايين، بيروت، 1974م، ص217.
- 156- النرشخي، ص74.
- 157- البيروني، الآثار الباقية، ص48.
- 158- البيروني، المصدر السابق، ص36.
- 159- بارتولد، تاريخ الترك، ص49.
- 160- أحمدوف، المرجع السابق، ص89.
- 161- Gibb, A,R; The Arab Conquest of Central Asia, London, 1923, p.u
- 162- الثامري، المرجع السابق، ص294، 295.
- 163- النرشخي، المصدر السابق، ص34.
- 164- ابن أعثم الكوفي، ج4 ص164.
- 165- البلاذري، ص600.
- 166- الطبري، ج7 ص140.
- 167- بارتولد، ص129.
- 168- ابن الاثير، المصدر السابق، ج4 ص185.
- 169- الطبري، المصدر السابق، ج7 ص192.
- 170- الطبري، ج7 ص70.